Si Hamid El Youssoufi

سي حاميد اليوسفي

الكأس المكسورة

مجموعة قصصية

سي حاميد اليوسفي

الكأس المكسورة

مجموعة قصصية

2023

فهرست

1 كرامة

2 الحي الشتوي

3 الدم والذهب

4 الرجل الذي يكره حماته

5 بائع السمك

6 الغزال الذي يشرب من النهر

7 القبلة المسحورة

8 القطط السوداء

9 الكأس المكسورة

10 المرأة الشبح

11 المقاطعة

12 الهوى غلاب

13 الوعود الكاذبة

14 زياد

15 طعام العرس

16 عبده النادل

17 عتبة الفقر

18 غادي الهاوية

19 قليل من الجنون

20 ليلة القدر

21 بنت الشعب

22 الانتخابات

23 علب الإسمنت

24 شوارع بلا أرصفة

25 العرس

26 فاطمة تفتح صفحة على الفايس بوك

27 الطريق الثالث

28 فاطمة تضع مولودا

29 من يوقف هذا العالم على رجليه

30 الله يغرق لهم السقف

31 نداء إلى ابن خلدون

32 عندما يرحل كورونا

تقديم

كُتبت هذه النصوص في فترات متقطعة بين 2018 و2022 وأغلبها نشرته على صفحتي في الفايس بوك.

أحيانا يرنّ في أذني مثل من القاع الشعبي :

(لمن تحكي زابورك يا داوود)؟!

فأقول لنفسي أنا لست داوود، وهذه النصوص ليست زابورا.

أنا لا أكتب لقارئ محدد. أكتب أحيانا للبسطاء مثلي عن واقع قد يكونوا هم أنفسهم أبطاله. أكتب لبائع السجائر بالتقسيط، والبائع المتجول، وعمال المقاهي، وللنساء اللواتي رمتهن ظروف صعبة في جحيم الحياة، وكل المقهورين.

لا أعرف إن كانت نصوصي ستصل إليهم أم لا.

أكتب أيضا لأصدقائي.

أكتب للمستقبل، ولإرضاء رغبة دفينة في النفس.

أكتب لكي لا أَنسى، أو أُنسى، بالفتحة والضمة.

وأود بهذه المناسبة أن أشكر كل أصدقائي وصديقاتي في العالم الافتراضي على تشجيعهم ودعمهم لي حتى أتابع الكتابة في هذا الربع الأخير من العمر.

سي حاميد اليوسفي

كرامة

تأملت خطوط يده. رأت امرأة، تمشي نحـو الأفق، تلتحف إزارا أبيض، لا يُشتكى منها قصرً ولا طولُ. بشرتها صافية مثل الماء، يكاد وجهها يعكس صورة من ينظر إليها.

رفعت العرافة بصرها، وتأملت ملامح الرجل، وصمتت قليلا، ثم همست بصوت واهن، كأنها تتحدث إلى نفسها:

ـ كرامة ! المرأة ذات الشعر الغجري. قيل بأنها تعشق، وتنتظر نبيا، رحل لاستلام الرسالة، ولم يظهر بعد.

ثم أشارت بأصبعها:

مرت منذ سنوات من هناك. كانت حزينة! اشتكت من ظلم الناس، وقسوة الغربة، وألم الفراق، فركبت القطار. لا أحد يعرف المكان الذي قصدته، ولا متى ستعود. كل الموظفين والعمال والتجار، وعيون السلطة، وبقية الناس الذين ترى في المحطة يسألون مثلك، ويتمنون لو حظوا بقبس من ضيائها حتى يتعافون من أمراضهم.

قال مثقف تاجر لزوجته:

ـ والله لو رأيتها لتمنيتِ أن تكوني مثلها!

نهرته بقوة، وشتمته في خاطرها:

ـ لم يدرك ميت القلب بعد، بأنّ المال صرفه عن رسالته، وبأن المرأة لا تحب أن تتشبه بامرأة أخرى؟

أدرك حجم خطئه، فانقبضت ملامح وجهه، ثم أطلق العنان لابتسامة صفراء.

صَوتُ القطار يَهدِرُ من بعيد. تبادل الرجال والنساء النظرات. حمل الرجل حقيبته، وسار بضع خطوات إلى الأمام وتوقف. لكن القطار لم يتوقف، مَرّ سريعا مثل العمر.

بقي الانتظار وحده يبلع قسوة الأيام، وهَــديرَ أصوات القطارات التي تأتي وتمضي.

فتح الحارسُ شريط الغناء. خيم صمت رهـــــيب على المحطة، لم يخرقه سوى صوت المغني:

ـ (ستُفتِّش عنها يا ولدي في كل مكان

وستعرف بعد رحيل العمر بأنك كنت تطارد خيط دخان

فحبيبةُ قلبك ليس لها أرض أو وطن أو عنوان)*

الهامش:

*مقطع من قصيدة قارئة الفنجان لنزار قباني، وقد لحنها محمد الموجي، وغناها عبد الحليم حافظ سنة 1976.

الحي الشتوي

انتقى طاولة خلف الزجاج في الركن الأيسر، وجلس يتلهى بما يجري أمامه في انتظار صديق ضرب له موعدا في مقهى (لي فيرناج). الشمس غربت منذ قليل. الشارع بدأ يضيق بزوار ليلة السبت الأحد بسبب تواجد العديد من الفنادق والحانات والمراقص الليلية خلف المقاهي بالحي الشتوي. فتيات في سن الزهور، ينظرن في شاشات هواتف نقالة. يتحدثن ويبتسمن ببلاهة مقصودة، ويلتقطن (السيلفيات)، ويتسكعن بالجوار، أو يجلسن في المقاهي. بعضهن يطمع في اصطياد زبون يرغب في قضاء أمسية حمراء. أغلبهن جميلات. كأن الله سكبهن من قالب في مصنع لإنتاج الدمى البشرية.

فروق طفيفة في النحافة والبدانة، والطول والقصر، ولون البشرة. حرارة المدينة في فصل الصيف، تدفع إلى الاقتصاد في اللباس، والمبالغة في تعرية أطراف الجسد الأكثر فتنة، مثل شعر الرأس والذراعين والكشف عن حمالة النهدين والصرة، وارتداء سراويل قصيرة ترتفع إلى أعلى الفخذين.

يحتفظ بذكريات قديمة عن شارع فرنسا، قبل أن يحمل اسم شارع محمد السادس بالحي الشتوي. زار المكان في فترات متقطعة تفصل بينها سنوات. شارع فرنسا، أو شاطئ من لا بحر له، ظل لسنوات طويلة ملاذا ومنتزها لأسر وأبناء الأحياء الشعبية في ليالي فصل الصيف.

سمع صوتا دافئا قادما من زمن بعيد:

(حلّآتْ سالفها حَلاّتو

حتى فقيه ما خلاّتو

خلاّت العزارى في جنب الواد)*

أغلب هؤلاء الفتيات شعرهن قصير، يهبط بين العنق والكتفين. تغير ذوق الناس، ولم يعد أحد يهتم بلون الشعر وطوله.

وقف النادل على بعد مترين من طاولته. ابتسم له، وطلب قهوة سوداء خفيفة.

سأل نفسه:

هل أخطأ بعض الوهابيين في وصف هؤلاء الحوريات بأقذع النعوت؟ (شمطاوات، مومسات، فاجرات، باغيات، داعرات ، حطب جهنم ...). كل وصف يشبه قنبلة ذرية، يمكن أن تدمر مدينة بكاملها. ولم ينسوا طلب ضرب أعناقهن بالصمصام. هؤلاء الوهابيون مثل القطط إذا لم تجد الطعام، وصفته بأنه نتن.

لا بد أن تتمالك نفسك، وتحذر وأنت تنظر إليهن. قد تنهرُك إحداهن، وتطلب منك غض بصرك أيها العجوز!

داخله شيء من الحياء. عاد الصوت القادم من بعيد يتردد على أذنيه :

(الزين داتو حليمة

وكولّو وكلّو راح الليل اهياوين ...)

ما يراه أمام عينيه جعله يشك فيما اعتقده حتى الأمس القريب مع سكان الأحياء الشعبية بأن الجمال استحوذت عليه حليمة، ولم تترك أي ذرة منه لغيرها .

أغلب النساء في الحي الذي يسكنه، والأحياء المجاورة يتشحن بالسواد. ولا

يشبهن حليمة التي استحوذت على الزين، ولا بنات الحي الشتوي. أجسام لا يظهر غير إطارها الخارجي الذي يشبه إطار سيارة معطلة اعتراها الصدأ مع توالي الفصول. تذكر ما يردده بعض الرجال بينهم في المقاهي على سبيل التنكيت :

ـ إذا أردت شراء سيارة قديمة، فاشتريها من معلم، لكن إياك أن تتزوج امرأة طلقها معلم!

سأل نفسه:

ـ من سيخفف عن هؤلاء النسوة آلام وأوجاع الحياة التي قضيناها في الأرض يتألمن من القهر والمرض والجهل والجوع؟

ـ كيف تجازيهن السماء؟ ألا يوجد الحور العين بصيغة المذكر؟

لم يفكر في الأمر من قبل. عليه أن يسأل فقهاء الشيخ (غوغل) عندما يعود في المساء إلى البيت.

تعجب لبعض الوهابيين كيف يسمحون لأنفسهم بأن يمدحوا نساءهم بالمؤمنات والعفيفات والطاهرات والمحصنات بينما يقسمون مع أنفسهم وبأغلظ الأيمان ألا يناموا إلى جانبهن في العالم الآخر، ويتمنون بدلا من ذلك لو حظوا بأربع حوريات أو أكثر، كالدر المنثور لم يمسسهن إنس ولا جان !؟؟

وإذا خيروك أنت ماذا تفضل؟ حورية من الأرض أم حورية من السماء؟

لم يكن ينتظر سؤالا من هذا القبيل. سكت لحظة، فكر ثم أجاب بدبلوماسية رمادية:

ـ ماذا سأختار يا إلهي؟ ربما في عمر الشباب سأميل إلى حورية من الأرض، وهذا ما سيفعله الكثير من الناس في هذا السن لأنها مثلهم من لحم ودم، وتبدو أحلى وأكثر واقعية. ربما وأنا شيخ اشتعل الشيب في رأسه، سأطلب من الله سبحانه أن يعيدني رفقة زوجتي إلى سن الشباب عندما كنا

نجلس ونأكل العنب معا، ونستمع لأميمة خليل، وموشحات فيروز، وقصائد درويش. لكن علي الانتظار كباقي المؤمنين يوم الحشر، وميقاتُهُ عند الله، ثم المرور عبر الصراط المستقيم.

ظهر صديقه، وهو يوقف دراجته بجانب عمود الكهرباء، ويمسح المقهى بعينيه. لوح له بيده. لعن الشيطان ووسوسته، وتذكر أنه كان سببا في طرد آدم وحواء من الجنة.

عاد الصوت يتردد في أذنيه من جديد:

(وقادَرْ أَ حَنّا يْتوب

يتوب علينا كامْلين).

المعجم:

*مقطع من أغنية شعبية.

-(حلات سالفها): أطلقت شعرها.

-(حتى فقيه ما خلاّتو): زارت كل الفقهاء ترجو مساعدتهم في العثور على زوج.

-(خلاّت العزارى في جنب الواد): تركت الشباب العازب بجانب الوادي.

الدم والذهب

ظلت مراكش في بداية السبعينات من القرن الماضي مدينة هادئة، تنام مثل طفلة هدها تعب النهار. لم يعكر صفو سكونها سوى جريمة من النوع الثقيل، جرى بذكرها الركبان.

لم يكن هناك أنترنيت، ولا (فايس بوك)، ولا (واتساب)، ولا (انستغرام). حتى الصحف والإذاعات المشهورة في ذلك الوقت كانت تتجنب تغطية أخبار الجرائم، وتكتفي بالإشارة إليها بشكل مقتضب في صفحاتها الداخلية، فلا ينتبه إليها أجد.

امرأة قيل على أن اسمها فطّومة، لكن الناس اختلفوا في تحديد سنها. البعض قال بأنها في الأربعينات، والبعض قال بأنها في الثلاثينات، واتفقوا على أنها قوية الشكيمة، وأن لها قلبا من حديد. وأضاف فريق ثالث بأنها كانت مغرمة بقراءة روايات (أغتا غريستي).

اتصل حارس مرآب الحافلات بمدينة الجديدة بالشرطة، بعد أن فاحت رائحة كريهة من صندوق قادم من مدينة مراكش، لم يأت صاحبه لتسلمه.

بدأت التحقيقات بالاستماع لمساعد سائق الحافلة حول من قدّم له الصندوق. وضع يده على رأسه، وبدأ يسترجع صورة المرأة التي نفحته بورقتين من فئة عشرة دراهم كبقشيش، مقابل الاعتناء بالصندوق، حتى يسلمه للشخص الذي سمته، ووصفته له بالتدقيق. لا يمكن الوصول إلى المرأة من خلال أوصافها الخارجية. فهي ترتدي جلبابا تقليديا بقُبّ، يُغطي رأسها، وتضع نقابا أسود لا يظهر منه سوى عينيها.

لا بد من البحث عن الحمّال الذي حمل الصندوق إلى المرآب. خلال ساعتين أو ثلاث عثرت عليه الشرطة، وقادها إلى الحي والدرب، ثم البيت الذي أخذ منه الصندوق.

تم اعتقال المرأة وزوجها. قيل بأنها انهارت بسرعة في التحقيق، وحكت للشرطة الخطة التي طبقتها من طقطق إلى السلام عليكم.

ذاع الخبر في جميع أنحاء المدينة، وبدأ الناس يتخيلون تفاصيل هذه الخطة، وينسبونها إلى جهات عليا في الشرطة والقضاء، لتكتسب مصداقية عند من يستمع إليهم.

روى عباس عن صديق له ـ سمع عن شرطي حضر التحقيق ـ بأن فطومة تعرفت على الضحية في الحمام، وتبادلتا الحديث، والكلام يجر الكلام، حتى نشأت بينهما ألفة ومودة. قاطعه مصطفى، وأكد بأن التعارف تم في الجلسة، بعد أن لاحظت بأن المرأة التي تجلس بجوارها تنتمي إلى أسرة ميسورة، وظهر ذلك من خلال ثيابها النفيسة التي أخرجتها من الحقيبة.

قفز إبراهيم، وقال بأنهما تعارفتا في الطريق أثناء العودة إلى منزليهما، وأن المرأة الميسورة وجهت دعوة كاذبة لزميلتها، لتناول كأس قهوة معها في البيت، فتلقفت الثانية الفرصة، واستجابت للدعوة بسرعة لم تتوقعها المضيفة.

بينما قال عبد السلام لو كنت مكانها لفطنت إلى أنها شريرة، فكيف تقبل دعوة وجهتها لها بدافع الحياء؟

اختلف الرواة حول توالي عدد الزيارات بين المرأتين اللتين أصبحتا صديقتين، البعض رأى أنها ثلاث، والبعض قال أربع حتى تطمئن القلوب لبعضها. لكنهم اتفقوا على أنها بعد ذلك استلفت منها قفطانا، قالت بأنها ستلبسه في عرس ابنة خالها. وبعد يومين ردته لها كما هو، لأنها لم تستعمله أصلا. مع تبادل الزيارات

بدأت الطريدة تقع في الفخ. وكانت الخطوة الموالية هي دعوتها لحضور عُرس ابن أختها.

جاءت الضحية بعد الغذاء، ترتدي القفطان والفستان تحت الجلباب، وتتزين بكل ما تملك من حلي نفيسة. أغرقتها بالمديح، وهي تدخل معها غرفة الضيوف. الآن أصبح كل شيء جاهز. في انتظار أن ترتدي ملابسها، ناولتها كأس ليمون بارد، وضعت فيه جرعة قوية من المخدر، والبعض قال بأنه كأس شاي. داخت المرأة، واتكأت على مخدة بجوارها، فنامت نومتها الأخيرة.

جرّدت فطومة المرأة من لباسها وحليها، حتى أبقت على ملابسها الداخلية.

ما حدث بعد ذلك لا يمكن وصفه. جرّت جسم الضحية إلى المطبخ بمساعدة زوجها. وضعت العنق فوق قطعة مستديرة من الخشب بعلو ثلاثين سنتمترا، ونزلت عليه بساطور حاد حتى طار الدم على صدرها ووجهها. ارتجفت يدها. في المرة الثانية أمسكت الساطور بيديها الاثنتين معا. ثلاث ضربات متتالية وبقوة، انفصل الرأس عن الجسد. شتمت زوجها، وصرخت فيه أن يترجل، وينظف الرأس، ويضعه في كيس بلاستيكي، وإلا قطعت رأسه هو أيضا. لم يعد هناك مجال للعودة إلى الوراء. المرأة الآن فارقت الحياة. كلما بقي عليها هو أن تُسرع في تقطيع بقية الأطراف كما يفعل الجزار في عيد الأضحى. طلبت منه إفراغ الأمعاء والمعدة في المرحاض، وتنظيفهما جيدا. سمعته يتقيأ، فذهبت إليه، وصفعته بقوة على قفاه، فانضبط وباشر العمل، ويداه ترتعدان. هددته بقطعهما. أخذ منها تقطيع الجثة ثلاث ساعات. أحست بالتعب. شربت كأسا كبيرا من الماء، وغسلت وجهها، ومسحت شعر رأسها بالماء البارد حتى تستعيد حيويتها.

أخفت الأطراف داخل أكياس بلاستيكية، وأغلقتها بإحكام، وأمرت زوجها بوضعها بين قطع ثلج كبيرة حتى لا تتعفن، وتنتشر رائحة الموت في المنزل، وطلبت منه تنظيف المكان بمسحوق الصابون و(جافيل)، وجهزت الصندوق، ووضعت قفلا فوق غطائه.

دخلت المرحاض، تخلصت من الثياب التي تلطخت بالدم أفرغت عليها دلو ماء بارد نظفت أطرافها ومسحت جسدها بالمنشفة، ولبست ثيابا نظيفة. طلبت من زوجها أن يغتسل، ويغير لباسه. جمعت الثياب المتسخة في كيس من البلاستيك، وقالت له عندما يهدأ الوضع، ستحرقها بجانب المقبرة. لم تشعر بالجوع، اكتفت بتهييء براد من الشاي.

لم تستطع إغماض عينيها في الليل. لا تسمع سوى طنين الذباب. لا تستطيع أن تخفي أطراف جثة عن الذباب مهما بلغت من الذكاء الإجرامي. باتت روح المرأة القتيلة تطاردها في كل أركان البيت. أمرت زوجها في الصباح الباكر أن يخرج للمناداة على الحمال الذي ستذهب رفقته إلى مرآب الحافلات. ضبطت حتى الوقت الذي ستخرج فيه الحافلة. أنجزت مهمتها بإتقان، وبرودة أعصاب.

قال عبد السلام أنه في مساء نفس اليوم ذهبت إلى الصاغة*، وباعت الحزام مقابل مبلغ مالي، اختلف كذلك حوله الرواة، البعض حدده في ثلاثة آلاف درهم والبعض زاد ألفا على ذلك.

لم يتفق عباس هذه المرة مع عبد السلام على ما وقع في الليل. عبد السلام قال بأنها نامت بشكل عادي، وكأن شيئا لم يقع، وزاد من فرحتها المبلغ المالي الذي حصلت عليه بعد بيع الحزام. بينما رأى عباس أنها لم تنم إلا بعد أن تناولت كأس شاي، وضعت فيه بعض الأعشاب المهدئة مثل (الجوزة) و(الغيطة) وقليلا من نبتة (السيكران)*. تدخل مصطفى وخالف الاثنين، وافترض أنها لم تنم، لأن الروح عزيزة عند الله، وأن الأعشاب المخدرة ستزيد من هلوستها وخوفها، وقد وافقه الرأي بقية المستمعين.

في اليوم الرابع، وهي تستعد للذهاب إلى الصاغة، سمعت الباب يُطرق بقوة. ارتبكت وأخفت الثياب والمال، وما بقي من ذهب تحت الفراش، وطلبت من زوجها أن يفتح الباب، ويرى من يدق.

كل الروايات أجمعت على أن الزوج شخص ضعيف لا حول ولا قوة له، وأنه مشارك في الجريمة كمنفذ، وليس كمخطط.

سأل الرجل :

ـ من خلف الباب؟

رد صوت قوي من الخارج:

ـ افتح الباب، الشرطة.

اهتز جسمه أدار القفل، ويداه ترتجفان، ثم ارتج صوت الباب بقوة واندفع خمسة رجال إلى الداخل:

ـ أين هي ؟

أشار إلى الغرفة بيده، فتم اعتقالها، وهي تسترق السمع فتسرب سائل مثل البول بين فخديها وبلل ثيابها.

المعجم :

ـ الصاغة: مجموعة من المحلات التي تتاجر في الذهب وتكون معزولة داخل فضاء أوسع له باب يغلق بعد العشاء، ويحرس من طرف شخص يسمى البيات.

ـ الجوزة: جوزة الطيب.

ـ الغيطة: نبات مخدر يشبه الماريخوانا.

ـ السيكران : نبتة مخدرة ذات بذور سوداء أو بنية اللون.

الرجل الذي يكره حماته

إبراهيم موظف صغير، استقبلته حماته أثناء فترة الخطوبة بحفاوة، جعلته يعتقد بأن الحماة أم ثانية لم تلده. بعد مضي نصف سنة على زواجه، أصبحت من ألذ أعدائه. تحولت بسرعة إلى ما يشبه امرأة ركبها جني، ويحرضها ضده. كل يومين أو ثلاثة في الأسبوع تزور ابنتها، وتملأ رأسها بوساوس لا أساس لها من الصحة. عندما يستخلص راتبه في نهاية الشهر يسمعها توشوش لزوجته :

ـ اطلبي منه أن يشتري لك سلسلة أو دملج من الذهب. خذي منه النقود واشتري ثيابا تليق بمكانتك، وخيطي جلبابا وفساتين جديدة استعدادا لحضور عرس ابنة خالتك.

ساءت العلاقة بينهما، وتخاصما مرارا في البيت، وتدخل الجيران أكثر من مرة للصلح بينهما.

هنية زوجته تملكتها الحيرة، وكادت تجن. إذا وقفت بجانب إبراهيم ستعادي أمها، وإذا وقفت بجانب حليمة ستعادي زوجها.

بعد سنتين ولدت له طفلا، فأغرتها أمها أن تترك البيت، بدعوى أنه رفض أن يكتري لها شقة في طنجة يقضون فيها العطلة.

مرت أربعة أشهر، ولم تترك ابنتها تعود إلى البيت. اقترح عليه الأصدقاء والجيران أن يلعن الشيطان، ويشترى لها ثيابا وعطورا نفيسة، ويرطب الأجواء، ويستعيد زوجته وابنه.

مع مرور الأيام اعتادت هنية على هذا النوع من الخصام بينهما، وأصبحت مثل الرقاص الذي يضبط كفتي الميزان.

عشر سنوات انقضت ثقيلة ومُرّة مثل العلقم. كم مرة فكر في طعنها بسكين، ووضع حد لمعاناته معتقدا بأن السجن أرحم. أصبح حديث الأهل والأصدقاء والجيران. لم ينقده منها سوى الموت الذي اختطفها بشكل مفاجئ.

يوم سمع الخبر كاد يطير من الفرح. أخيرا تنفس الصعداء، بعد كل هذا العذاب الذي أذاقته طيلة فترة زواجه، سينعم بالسعادة وراحة البال، وكأنه اليوم الثاني بعد زواجه. أخفى فرحه عن الناس وعن زوجته، ولبس قناع الحزن حتى تعجب الناس من أمره.

واعتاد على أن يزور قبرها كل يوم سبت، وهو ما أثار فضول الجيران واختلفوا حوله.

البعض قال بأن إبراهيم رجل طيب، رقيق العواطف، يذهب إلى المقبرة كل يوم سبت يترحم على حماته، ويقرأ على قبرها القرآن، ويدعو لها بالرحمة والمغفرة.

فريق آخر اعتبر أنه لا يبلغ هذه المرتبة من التسامح إلا الزهاد والمتصوفة. وإبراهيم لا هو زاهد ولا هو متصوف. لا بد أن سرا ما وراء زيارة قبر حماته. عشر سنوات من العداوة والجروح والآلام التي سببتها له، لا يمكن أن تنتهي لا بالغفران ولا بتراجع من هذا القبيل. والرجل لا بد أنه فكر في قتلها عندما كانت على قيد الحياة، فكيف يترحم عليها بعد أن خلصه الله من شرها.

تمسك كل فريق برأيه. ولما اشتد الخلاف بينهما، كلفا شخصين كل واحد من فريق، وطلبا منهما أن يلبسا الجلباب، ويغطيا رأسهما حتى لا يتعرف عليهما، ويراقبان ما يفعل إبراهيم .

سارا خلفه يوم السبت إلى المقبرة. وتوقفا أمام قبر بجانب قبر المرحومة، وسمعاه يقرأ شيئا من القرآن، وبعد ذلك يكيل الشتائم لحماته ويدعو الله أن يجعل الدود ينهش لحمها عشر سنوات حتى يقتص له منها.

بائع السمك

يجلس بمفرده أمام (البارمان)، واضعا أحد مرفقيه على (الكونتوار). يحتسي البيرة ويدخن. ويضع أمامه صحنا صغيرا من الزيتون الأخضر (المُرقّد). عدد قليل من الزبائن يأتي إلى الحانات في هذا الوقت. وقف شاب جامعي في العشرينات بجانب (الكونتوار) بعد أن خرج من حانة مجاورة. طلب زجاجة بيرة باردة. تفحص المكان، فهو يدخله لأول مرة. لاحظ خفوت الضوء، وشدة العتمة رغم أن الساعة لم تقترب من الثالثة بعد الزوال. تناول سيجارة. طلب من الشخص الجالس بجانبه عود ثقاب.

أغلب السكارى لا يجدون حرجا في التحدث إلى الناس عن خصوصياتهم، حتى ولو كانوا غرباء عن بعضهم العض. الكحول يمنحهم جرأة زائدة عن بقية الناس. بدا الشخص الجالس في (الكونتوار) ثملا يتحدث مع نفسه بصوت عال. ربما يبحث عمن يؤنس وحشته، ويشكو له همومه حتى ولو كان لا يعرفه.

الرجل يبدو في نهاية الأربعينات، قوي البنية، متوسط القامة. قصة شعره الأسود الكثيف الذي يغطي الأذنين، تعود إلى ثمانينات القرن الماضي.

يروى بأنه (حوات) يبيع السمك. يعيش مع زوجته وأمه داخل بيت واحد لا ينقصهم أي شيء. إلى حدود الأسبوع الماضي كان يداوم على الصلاة، ويذهب إلى المسجد. لكن طارئا يحدث في كل مرة يفسد عليه أن يمشي في هذا الطريق بخطى المؤمن الواثق. لكي لا ينسحب الشاب طلب له زجاجة من البيرة. السكارى أيضا كرماء مثل خلفاء المسلمين عندما يفتحون خزائنهم للشعراء،

لشراء أوصاف بعيدة عن أخلاقهم بعد السماء عن الأرض. أضاف وهو يتلعثم في الكلام:

ـ سبب عودتي إلى هذه الحانة هي أنها المكان الوحيد الذي يطفئ غضبي عندما تشتعل النار بين أمي وزوجتين، وتنتقل إلى رأسي. كل مرة يفتعلان المشاكل بينهما على أتفه الأسباب، وأكون أنا الضحية. أمي رغم تقدمها في السن تُغيض زوجتي وتُغضبها، ربما بدافع الغيرة، وقد تأكدت من ذلك بنفسي. زوجتي نفسها حارة لا تقبل الإهانات. يتنازعان دائما عن السيادة داخل البيت، فيضعاني بين نارين: لا أستطيع إغضاب أمي، ولا ظلم زوجتي، أو ضربها، ولا يسمح لي ضميري بطرد إحداهما من البيت.

الشاب جاء إلى الحانة من أجل أن ينشط، ويغير الجو، ويغسل روحه من تعب الروتين اليومي، لكن يحدث دائما عكس ما يتمناه، فيصطدم بما يعكر صفوه.

احتسى البيرة، واستغرب لقصة الرجل مع أمه وزوجته. وحمد الله أنه لم يتزوج بعد. وحتى وإن فعل في المستقبل، فهو لن يقع في نفس الفخ، لأن والدته رحمة الله عليها، رحلت إلى العالم الآخر قبل دخوله إلى المدرسة.

تعاطفه مع الرجل جعله يتدخل بين الفينة والأخرى لتهدئته، ودعوته إلى الاستماع للطرفين، وإقناعهما بأن التعايش بينهما فيه مصلحة للجميع.

أفرغ ما تبقى من زجاجة البيرة حتى علا الزبد الأبيض الكأس وتدفق قليلا، ثم أضاف وهو ينفث دخان السيجارة، ويرسم كويرات صغيرة أمام وجهه:

ـ فعلتُ المستحيل من أجل أن يطول الصلح بينهما، ويطول معه طريقي إلى التقوى والإيمان، لكن دون جدوى. بعد يوم أو يومين تعودان إلى عادتهما المفضلة: الخصام ومحاولة اختبار الطريق الذي سأمشي فيه.

أقسمت لهما بأني سأسير في طريق ثالث، ولن أعود إلى البيت إلا ثملا بعد منتصف الليل حتى يكفا عن الخصام، وافتعال المشاكل بشكل نهائي. لهذا آتي إلى هذه الحانة كل مساء بعد الانتهاء من عملي، ولا أرجع إلى البيت إلا بعد أن يتعب جسدي، وأتذكر بصعوبة بأن لي بيتا يجب أن أعود إليه.

الغزال الذي يشرب من النهر

وما كل وجه مضيء يدور

بعتمة ليل يُسمّى قمر*

قُبيل غروب الشمس بقليل، يشتد الزُّحام في الزُّقاق. تَوهُّج شمس الصيف ولهيبها داخل أسوار مراكش يبدأ في الانخفاض بشكل تدريجي، ويسمح للناس بالهرب من عتمة الغروب. الإنسان سواء كان رجلا أو امرأة، إذا لم يكن عنده ضيوف أو شُغل مهم داخل البيت، لا بد أن يخرج. يتفسح قليلا، ويشم الهواء، ويودع يوما آخر من حياته ثم يعود إلى البيت. أغلب جدران الأزقة والدروب والمنازل المبنية بالطين تنفث في المساء الصهد الذي ظلت تمتصه في النهار.

ضوء المصابيح الكهربائية ينبعث خجولا، وكأنه يلتحق متأخرا بحركة الزقاق. نساء وفتيات وأطفال ورجال من مختلف الأعمار، يسيرون في اتجاهات مختلفة.

الصيف موسم الأعراس، فيه تعتني الفتيات والأرامل بمظهرهن الخارجي بشكل ملفت. وتتمنى كل واحدة أن يطرق الخطاب باب البيت، وتختار فارس أحلامها قبل أن يرحل عنها القطار. زينب امرأة في الثلاثينات توفي زوجها منذ سنتين، ولم تُخلّف منه أطفالا. ترتدي جلبابا من ثوب صيفي، وبلون أزرق مفتوح ناعم وجذاب، وتحته لباس خفيف، يُناسب حرارة مراكش، وصهد مدينتها القديمة. تستعمل على طريقة نساء السبعينات من القرن الماضي قُبّا يُخفي الشعر، وجزءا من الرأس. تتفنّن في طي جنباته،

ويمر فوق حاجبين رقيقين، تحتهما رموش زاد الكحل من سوادها حتى بدت مثل الخناجر الحادة التي تعودت على الفتك بأرواح القواد والملوك. فوق أرنبة الأنف ينزل نقاب أسود شفاف يغطي النصف الأسفل من الوجه، ويكشف قليلا عن ظلال الشفتين. بناء القُبّ فوق الرأس، وطَيّ بعض أطرافه يحتاج إلى وقت، ومهارة فائقة، ويُعبّر عن ذوق رفيع، يزيد من أناقة المرأة، وجمال مظهرها الخارجي في ذلك الوقت. وهو أصعب مئة مرة من طي العصابة فوق الرأس عند الرجال.

قبل تخلّص النساء من النقاب الأسود، كان الرجال شديدي الخوف من الوقوع في مصيدة الغواني اللواتي تساقطت أسنانهن.

سُعاد الفتاة التي ستُرافق أو تُراقب زينب هي أختها الصغرى وكاتمة أسرارها، تكتفي بوضع منديل تغطي به شعرها، وتحرص على أن يتناسق من حيث اللون مع الجلباب. أما العطر فيتسرب بطيئا مثل الضباب، ولا يفوح بعبيره إلا إذا اقتربتَ أكثر من ذات الجلباب الذي يشبه لون السماء. ويُسمح لهما بالخروج مرتين، أو ثلاثا في الأسبوع.

تتحول بعض الحفر إلى بِركات من الماء الآسن أمام دكاكين التجار والصناع. وقد يتعمّد بعضهم تسريب الماء إليها عندما تنشف. زينب بقامتها الممشوقة، ترفع الجلباب قليلا، لتجنب الماء الوسخ، وكأنها تخشى أن يلطّخ أطراف ثيابها، فتكشف فتحة في الأسفل عن ساقها. ويحدث معها مثل ما حدث لبلقيس في الكتب المقدسة، عندما دخلت صرح النبي سليمان عليه السلام. الرجال في هذه المدينة يُصوّبون عيونهم دائما إلى الأسفل. يتصيدون السيقان والأحذية والصنادل. امتلاء الأرساغ التي تربط عظام القدم السفلية مع عظم الكاحل أو الزغب الخفيف في الساق مقياسان جماليان لا تخطئهما أعين الكبار، ويقتضيان رفع الرأس، وإطلاق رسائل غزلية قصيرة وحادة، تطير سريعة مثل السهم نحو الهدف المنشود.

رفع علال بصره، ونظر بدهشة ناحية زينب، وهو يبتسم، وعندما التقت عيناهما قال بصوت رخيم لا يتجاوز مداه الطريدة:

ـ يا إلهي كيف تشرق الشمس بالليل!؟

الغزال المستهدف إما أن يفتح صدره للسهم، ويُطلق ابتسامة خفيفة تعبيرا عن الرضا مثل زينب، وهذا ما يحدث في الغالب، أو يحمر الوجه غضبا، وترسم صاحبته حركة امتعاض، وتشيح به إلى الجهة الأخرى، إذا لم يعجبها السهم أو من أطلقه. وفي أحيان أخرى لا تهتم ولا تفعل شيئا إذا كانت سيدة متزوجة داخلة سوق رأسها.

بعد صلاة العشاء، تعود سعاد وزينب إلى البيت. تستبدلان ثياب الخروج بثياب المنزل. يفتحان الأنبوب، ويملآن الدلوين بالماء، ويفرغانهما على الزليج في قاع الدار، مسرح سهرة الليل. تُداعب زينب برودة الماء برجليها، وتسبح في بحر من الخيال. وجه الصياد الذي أطلق السهم لا يفارق عينيها. تتخيله في صورة فارس يمتطي صهوة جواد يطير بجناحين، مثل صورة الفارس المعلقة في صالة الضيوف. يمد يده إلى الشمس. يحاول انتشال الزهرة من دائرة النسيان، والذبول البطيء. تمسح يدها بطرف القميص. تتردد قليلا! يخفق القلب بخوف غامض، يشبه نفور الغزال عندما تتحسس، وتشم رائحة كائن غريب يقترب من النهر الذي تشرب منه.

الهامش:

*أبو العتاهية

القبلة المسحورة

1

مر حوالي نصف ساعة على طلوع الشمس. لَوّحَ عبّاس بيده لسيارة أُجرة، فوقفت بجانب الرّصيف أمام باب الإقامة. تقدّم نحوها خطوتين، وفتح الباب، ثم التفت خلفه، فخرجت فتاة في العشرينات من وراء الكشك الصغير الذي يجلس فيه. انحنت قليلا، وفتّشت حقيبتها اليدوية، ثم وضعتها فوق المقعد. اعتقد أنها عادت لتقدّم له بعض البقشيش، كما يحدث في المسلسلات التلفزيونية، لكنّها وقفت بجانبه، وقرّبت خدّها النّحيف من شفتيه، وأشارت عليه بأصبعها. تردّد قليلا! وقفت على أصابع رجليها، ومالت على شفتيه مرّة أخرى، وأصرّت عليه بأصبعها أن يطبع قُبلة على خدّها الأيمن. احمرّ وجهه. التفتَ يمينا ويسارا، لم يجرؤ على فِعلها أمام سائق الطاكسي! جَرَّته من رقبة قميصه، ومالت بخدّها حتّى لامس شفتيه، ثمّ ركبت، واختفت داخل سيارة الأجرة التي انطلقت نحو الوجهة المطلوبة.

2

وقف عبّاس مشدوها. لم تفعلها معه فتاة من قبل. أحسّ بنشوة تسري في عروقه ألذّ ممّا يفعله العشاق بعيون مُغمضة في أمكنة مُعتّمة. جعلته مثل طائر، يُحلّق في خيال كالسّحر طيلة اليوم. في البداية اختار سيارة فاخرة من نوع (ميرسيديس) تليق بالمقام، فتساءل بسخرية:

ـ لا تبالغ! (المرسيديس) دفعة واحدة!؟ كيف ستقودها وأنت لا تتوفر على رخصة. بالكاد تقدر على قيادة درّاجة ناريّة من النوع البسيط. أكيد أنك إذا استطعت إدارة المحرك ستصدمها مع الحائط أو مع عربة أخرى؟

ليتخلص من هذا الإحراج، افترض أنه يتوفّر على رُخصة، ويقود سيارة أقل قيمة، والفتاة الجميلة تجلس بجانبه. بدت نحيفة أكثر مما يشتهي. تمنى لو كانت بدينة قليلا لبدت أجمل. أمه وعدته إذا دخل سوق رأسه، ووسعها الله عليهم، بأن تخطب له فتاة بدينة بعض الشيء، وبيضاء مثل الحليب. يفتح البوّابة كُلّما طُلِبَ منه ذلك، ثم يعود إلى حلمه اللّذيذ. يتخيّل نفسه يسكن في إحدى هذه الشقق الفاخرة التي يحرسها، ويدخل رفقة الفتاة التي أصبحت صديقته في الخيال أفخر المطاعم، ويتناولان وجبتهما بالفُرشاة والسكّين. تذكّر ما حدث له مرّة، حين طلبه أحدهم لاقتناء عُلبة سجائر في مُنتصف الليل، ولما عاد أخرج له بقايا وجبة طعام في (بلاتو)*. ضغط على حبّة الزّيتون بالفُرشاة فطارت من أمامه. ماذا لو طارت في المطعم، ولطّخت ثياب فتاة تجلس مع عشيقها قُبالته؟ نعم هو قويّ البنية، لكن الزّمن تطوّر، والناس الذين يرتادون الأمكنة الرّاقية، لا يتعاركون بالأيدي، بل يكسبون المعارك بالهاتف فقط. بابا وماما على الخطّ، والأمن في الخدمة. وفي رمشة عين يجد نفسه في قسم الشرطة، وفي الصباح يُقدّم للمحاكمة.

3

لا بد أن يدخل سوق رأسه، وينسى الأيام التي ساقته إلى أقسام الشرطة والمحاكم، ثم رأى أنه من العيب أن يعبث ببنات الناس، ويستغل فقرهن. أخته أيضا فتاة وسيمة، لكنه لا يرضى أن يضحك عليها أحد فقط لأنها فقيرة. قال في نفسه مستغربا:

ـ ولكنّ الله تعالى نفسه أباح لنا في الجنّة أن نسهر مع من شئنا من الغلمان والحور العين! ألم يعدنا كذلك بأنهار من خمر لذّة للشاربين؟ ولكن لماذا منع عنا ذلك هنا في الحياة الدنيا؟ ربما وراء ذلك حكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه والراسخون في العلم.

وسوس له الشيطان بأن يدخل سوق رأسه، وتمنّى عليه أن يترك الجنّة، فطريقها أصبح وعرا في هذا الزّمن الصّعب.

4

تخيّل صورة أخرى أبسط وأجمل، يتمناها كل شاب في سنه، ويرضى عنها الله والأهل في الحياة الدنيا. رأى الفتاة تجلس بجانبه مثل القمر في حفل زفاف، ترتدي ثوبا أبيض، والغالية أمه تقف بين النساء، تبتسم وتزغرد. أوقف الحلم لحظة، وتساءل باستغراب:

ـ وأين سنعيش؟ هل تقبل عروس بأن تتزوج من حارس يقتسم غرفة مع إخوته؟

تذكر ما تقول له الوالدة من حين لآخر، وهي تربت على كتفه، عندما يهم بالخروج من البيت:

ـ بمجرد ما يوسّعها الله علينا، أخطب لك فتاة أجمل من القمر.

يعلق على وعدها في صمت:

ـ منذ سنوات يا أمّي والأقمار تظهر وتغيب، والله لم يوسّعها علينا بعد!

تلمس الإحساس بالخيبة في نظراته بحدس الأم، تتألم في صمت، لكنها لم تفقد الأمل في أن تدعو الله في كل صلواتها أن يفرجها معهم، وتفرح بعروسه.

هذا الواقع الذي يزداد تعقيدا كل يوم، ينغّص عليه أحلامه، ويمنعه من الطّيران، ويشدّه إلى الأرض. حاول التهرّب منه، والعودة إلى تخيّلاته من جديد.

5

رأى نفسه يُلبسُ العروس الخاتم، ويطبع قبلة سريعة على خدّها الأيسر، أصابته رعشة خفيفة، فكاد يذوب من الخجل. نفس الخجل الذي اعتراه عندما وضعت خدّها على شفتيه في الصّباح. تبادلا شرب الحليب، وعضّت على نصف التّمرة، وقدّمت له النّصف الآخر. ارتفعت الأهازيج الشعبية:

ـ (ادّاها ادّاها والله ما خلاّها)*

في اللحظة التي وقفا فيها معا، يهُمّان بالذّهاب إلى غرفتهما في البيت الجديد، قطع عليه مُنبّه السيارة حلمه الجميل. فتح البوّابة، وناداه وائل بإشارة من يده، وتبعه بسرعة. طلب منه حمل بعض الحاجيات من حقيبة السيارة إلى الشقة. نزلت فتاة في سن الزهور. وضعت يدها في يد زميلها. ترتدي سروال (دجينز) قصير، وقميص صيفي يفصل بين النصف الأعلى، والنصف الأسفل من الجسم، فبدا جسدها من الخلف ضامرا وجميلا، مثل عود الخيزران.

وهو يصعد السُلّم، لاحظ بأن العُلبة ثقيلة شيئا ما. خمّن بأنها مليئة بالطعام والمشروبات الروحية. رأى بأنهما يتمايلان بفعل السكر، ويتّكئان على بعضهما مثل عاشقين. رُبّما قَدِما من مرقص لقضاء بقيّة السهرة في البيت. كل ليلتي جمعة وسبت يخلق وائل جنّة صغيرة توافق مزاجه.

6

كاد يستيقظ بداخله حيوان قديم، سكن روحه في الماضي، لولا هذا العمل اللعين الذي لم يعثر عليه إلاّ بشقّ الأنفس، والقسَم الذي أدّاه لوالدته أمام المصحف الكريم، بأن يعمل كل ما في وسعه للتخلّص من هذا الجزء الأسود من ماضيه، حتى لا يجرجرها أمام الأقسام والمحاكم، وهي في أرذل العمر.

شتم حظّه العاثر، لم يستطع تخيّل بقية للعرس، فقد خرج الضيوف، وتشتّت ذهنه. شكا الفتاة التي قبّلته هذا الصباح إلى الله، وتمنى لو لم يقابلها.

عندما يدخل سوق رأسه، يطير عاليا بلا أجنحة، لكنه يسقط مثل طائر ميت على رأسه قبل أن يرتطم بالأرض.

المعجم:

- (بلاتو): صينية.

- (ادهاها اداها والله ما خلاها): فاز بالعروس ولم يتركها لغيره.

القطط السوداء

1

استيقظ من حلم مزعج. ذهب إلى المرحاض. ثم خرج إلى الحوض وغسل وجهه. فتح الهاتف. الساعة تقترب من التاسعة والنصف صباحا. تأخر في النهوض من النوم. فتح الباب، ونزل السلم. لا يستطيع مقاومة أشعة شمس الصباح. لبس نظارته السوداء، وركب الدراجة متجها إلى (المخبزة). كاد يصدم امرأة تتشح بالسواد قطعت الطريق دون أن تلتفت. تأمل وجهها. رأى فقط البؤبؤ يتراقص بين رموش عينيها. عادت به الصورة سنوات طويلة إلى الوراء.

2

يحكي الناس في المدينة، والعهدة على الرواة، أنه في أواسط التسعينات من القرن الماضي، ظلت امرأة محجبة تستضيف صديقة لها تشبه القطط السوداء. في الأول بدأت الزيارات في أوقات متفرقة بالنهار، عندما يخرج الحاج إلى العمل. ثم تطور الأمر إلى المبيت بشكل تدريجي ليلة واحدة، ثم ليلتان، ثم ثلاثة في الأسبوع. وفي كل مرة تتعلل الزوجة بأنها ستنام مع صديقتها في الغرفة الثانية حتى الصباح. تستيقظ باكرا، وتهيئ الوضوء لزوجها، ثم الفطور، وتعود إلى الغرفة، وتوقظ صديقتها لأداء صلاة الصبح رفقتها.

في الأسبوع الثالث وقع ما لم يكن في الحسبان. وبينما المرأة قبل أن تنهض من الفراش لتهييء الوضوء، ثم الفطور لزوجها، حاولت أيقاظ صديقتها. نادت عليها باسمها بصوت مرتفع لإيهام الزوج، فلم تجب. حركتها من الكتف، ولم تستجب. بدأ الفأر يلعب في رأسها. أشعلت النور، حركتها بقوة، لم تستجب. رفعت يدها إلى أعلى، وأطلقتها، فسقطت فوق الفراش. لاحظت بأن اليد لا حرارة فيها، لمستها من جديد، فوجدتها باردة مثل الثلج. انفلتت منها صرخة

عالية من غير أن تشعر. تلتها صرخات أخرى. تردد الحاج في البداية، ثم اقتحم الغرفة. تفاجأ بأن الشخص الذي ينام فوق الفراش ليس امرأة بل رجلا بشارب ولحية. جر زوجته من شعرها بيد إلى وسط البيت، ولكمها باليد الأخرى. وهما يصرخان، أيقظه طرق قوي على الباب، وأعاده إلى الواقع. أطلق شعرها، ومشى من غير وعي. فتح الباب، وجلس بجانبه، وأشار إلى داخل المنزل، ثم وضع رأسه بين يديه. بعض الجارات اقتحمن البيت وأشفقن من حال المرأة، وهي تبكي، وشعرها منفوش على وجهها. طلبن منها أن تلعن الشيطان. سحبنها من وسط البيت، ودخلن الغرفة الثانية. وما أن رأين جثة الرجل فوق الفراش حتى عدن مهرولات إلى الوراء. بعد أن انكشف كل شيء. خرج أحد الجيران واستدعى الشرطة، قبل أن تقع جريمة أخرى.

3

صديقة للمرحومة استغلت الحزن الذي يخيم على العزاء، وأسرت لبعض قريباتها، بأن أمنية الفقيدة أن تغسلها يوم مماتها فلانة، وهي تسكن قريبة من الحي، فكلفوها بإحضارها. بدت الغسالة امرأة بدينة في سن الأربعينات، تشبه قطة سوداء، وتخفي جميع ملامح وجهها بخمار أسود داكن، تتراقص خلفه عينان زائغتان، لا تتوقفان عن الحركة. أطلق سكان المدينة في هذا الوقت على هذا النمط من النساء اللواتي يتشحن بالسواد، لقب (نينجا)*. دخلت الغرفة التي ترقد بها المرحومة.

بعد حوالي ساعة أنهت مهمتها، وخرجت تنتظر أجرها. كمن صفع إحدى القريبات، فتذكرت الحلي. دخلت وخرجت مسرعة. نادت على أخيها البكر، وأخبرته بما حصل. طلب من القطة السوداء إخراج الحلي، وتسليمها لأصحاب البيت. نفت في البداية وجود حلي أصلا. شتمها وهددها باستدعاء الشرطة. تنازلت عن نفيها السابق، واعتبرت الحلي رزقا وهبه الله لها. نزع الحقيبة من يدها بغضب، وأفرغها من الحلي. ثم رماها في وجهها، وضربها على مؤخرتها برجله، وطلب منها أن تنصرف قبل استدعاء الشرطة. خرجت مسرعة من

الشقة، وهي تتمتم بعبارات غير مفهومة. لحسن الحظ وجدت سيارة أجرة وقفت لبرهة، فتحت الباب، ورمت جسدها في المقعد الخلفي، واختفت.

انتشر الخبر بسرعة بين الحاضرين، فتعجب الناس مما حصل. واستغربوا كيف تجرؤ امرأة متدينة تتشح بالسواد على سرقة امرأة ميتة؟

4

مدرس بقطاع التعليم، يؤطر ويصنع القطط السوداء. يتغيب كل جمعة عن العمل. يقضي اليوم ببعض الدواوير المجاورة للقرية، يعظ ويخطب ويؤم الناس للصلاة، ويتناول طعام الكسكس. لا يعود إلا بعد صلاة العصر، محملا بالخضر والفواكه.

جرت العادة في أغلب القرى المغربية أن تظل أبواب المنازل مفتوحة طيلة النهار.

نسبة البيت للمرأة عادة قديمة. سيدة البيت. بعض البيوت مثل العباءات السوداء.

زوجة الفقيه المدرس غريبة عن المنطقة، تنحدر من بلدة بعيدة، لا تعرف أحدا. بيتها لا تدخله امرأة، ولا تخرج منه امرأة. لا يُسمح لها حتى بالذهاب إلى الحمام، مثل باقي النساء. عليها أن تستحم داخل البيت صيفا وشتاء. لا تزور ولا تُزار.

يُخرج المفتاح من جيبه. يفتح الباب حين يدخل، أو يغلقه حين يخرج. قد يغيب يوما أو يومين أو أكثر، لكنه يظل مطمئن البال. الباب مُغلق بالمفتاح. والمفتاح في جيبه.

يأتي ضيوف من الرجال إلى بيته في فترات متباعدة. يستمعون إلى القرآن الكريم، ويتحدثون بأصوات عالية، ويضحكون. يشربون الشاي، ثم يتناولون طعام العشاء وينصرفون.

ظلت الزوجة وحيدة، لم يمنحها الله طفلا أو طفلة تؤنس وحدتها. لا تعلم إن كان الخلل منها، أو من زوجها. ربما هذا ما دفع بعض سكان القرية إلى التشكيك في فحولة الفقيه المدرس.

لكنه ظل يبالغ في التعبير عن عكس ذلك. كلما تمر امرأة بالقرب منه، يتتبعها بعينيه، يلتفت إلى مؤخرتها، ويفحصها من فوق إلى تحت، وكأنه يقيس طولها وعرضها، وربما حتى وزنها.

5

هذه المرة قط حقيقي أسود سمين وغريب الأطوار. اعتاد في الليل أن يوقظ عمته بموائه، أو بجر ثيابها، لتفتح الباب لابنها قبل أن يطرقه. عندما يُغلَق عليه الباب وهو خارج البيت، يمدد جسمه حتى تصل رجلاه الأماميتان إلى (الخرصة)، ويطرق الباب.

كلاهما يكره الآخر، كلما وجده في طريقه ضربه برجله، وكلما ترك باب الصالة مفتوحا، وجد جواربه متناثرة في السلم.

وهو قادم من السينما مسطولا في منتصف الليل، بعد أن شاهد فيلما مرعبا، يحمل عنوان (طارد الأرواح الشريرة)، وضوء الدرب معتم بضباب قطرات مطر خفيف مع انخفاض درجات الحرارة، ماءت قطة سوداء بالقرب من القمامة، تداخل صوتها مع أحد مشاهد الفيلم، فقفز من مكانه مذعورا. كاد قلبه يخرج من صدره. فرك عينيه وفتحهما جيدا. رفع من سرعة خطواته. وقف أمام الباب، وتنهد حمدا لله على سلامته، ثم أدار المفتاح.

الخوف من القطط في الليل تسرب إلى وعيه الباطني منذ الطفولة، عندما سمع الكبار يؤنبون الصغار، بعدم التعرض للقطط السوداء في الليل، ويؤكدون أنها مسكونة بالأرواح الشريرة.

الكأس المكسورة

1

تناول عمر يوم عطلته ملعقتين كبيرتين من مخدر (المعجون)*، وذهب إلى السينما صحبة نرجس.

تركب نرجس دراجة (ميني)* تخفي إعاقة في رجلها اليسرى. تقف بعيدة عن المقهى ببضعة أمتار. عندما يراها بعض أبناء الحي الواقفين بالجوار، يلتفتون يمينا وشمالا بحثا عن عمر. يعرفون مسبقا بأن اللعين سيظهر لا محالة ، ولو من تحت الأرض. يقف معها مرتين أو ثلاث يتحدثان مثل عاشقين لمدة ساعة تقريبا، قبل أن تستجيب للذهاب معه إلى السينما يوم الجمعة.

نرجس فتاة جميلة، ذات وجه صغير مدور مثل القمر، وعينين واسعتين. في المساء يوصلها قريبا من الحي الذي تسكنه، ويعود بمفرده.عيناه شديدتا الاحمرار، ينظر بخجل إلى الناس في الزقاق. ربما يفعل ذلك بدافع تأثير (المعجون).

يدخل إلى المقهى، ويجلس مع ثلة من الأصدقاء. يسأله إبراهيم، وكأنه يريد أن يفتح شهيته للحديث:

ـ قضيت وقتا ممتعا في السينما؟ لا بد أنك قبلتها في الظلام!؟ وعبثت بشعرها الجميل أيها الشيطان!؟

لم يجبه. بقي فقط ينظر إليه، ويبتسم كأنه يوافقه الرأي.

التفت ناحيته عبد الله المرشد السياحي المزور*، وقال مبتسما:

ـ نهدا صديقتك مثل رمانتين نضجتا حتى تشققت قشرتهما. أنت محظوظ يا عمر! لست مثل هؤلاء المكبوتين الذين لم يسبق لهم الذهاب مع فتاة إلى السينما!

طلب قطعة خبز محشوة بالبيض والجبن، وفنجان قهوة بالحليب، وأشار للنادل بأن يُكثر من الكمون، ويقلل من الملح، ويناوله كأس ماء بارد.

تناول الوجبة، وهو يستمع لتخيلاتهم عما فعله مع نرجس في السينما.

عندما انتهى من الأكل، نادى على بائع (الديطاي)*، وطلب سيجارة (مارلبورو).

أشعل إبراهيم عود ثقاب، وقربه من السيجارة. اتكأ عمر، وأخذ نفسا طويلا، ثم نفت سحابة دخان كثيفة أمامه، وقال بصوت منخفض:

ـ كلامكم جميل، لكنه غير واقعي. علاقتي بأي فتاة من ذوي الاحتياجات الخاصة مثل كأس، نصفه مملوء، ونصفه فارغ.

نعم أنا محظوظ لأني كل يوم جمعة أقضي حوالي ساعتين أو ثلاث مع فتاة جميلة في السينما، نتبادل الهمس والقبل، وهذا هو النصف المملوء من الكأس. ولكن حظي أيضا سيئ. عندما تلمس يدي فخد نرجس الأيسر، لا تلمس غير الحديد البارد، فأحس بخوف رهيب، وأتخيل وأنا مسطول، رِجلا ضخمة تسقط من سماء مظلمة فوق رأسي، فأسحب يدي، وأتمنى أن ينتهي الفيلم بسرعة، ونخرج من السينما. أسبوعان أو ثلاثة وأضطر إلى إنهاء العلاقة.

قال إبراهيم وهو يغمز عبد الله:

ـ عمر أصبح غاوي الفتيات من ذوي الاحتياجات الخاصة، وينتقي أجملهن بعناية.

رد عمر بصوت يمزج بين الفخر والحسرة:

ـ نعم في البداية أشعر بلذة وسعادة، ويدي تتحسس نهديها، أو تلعب في شعرها، أو عندما تضع شفتاها على عنقي، أو تلعب أناملها بشعيرات صدري، ونستسلم لبعضنا في النهاية، كما يفعل بطلا الفيلم في السينما، وتنام على كتفي. لكن أشعر بالرعب عندما أتذكر بأني أجلس في الظلام مع فتاة بساق من حديد بارد.

وعندما أتخلى عنها ينتابني إحساس بألم فظيع، وأخشى بألا تخرج عاقبتي بخير. ربما سأدفع يوما ثمن هذا الجرم الذي ابتليت باقترافه، وهذا هو النصف الفارغ من الكأس.

نفث سحابة كثيفة من الدخان وقال مداعبا ومغيرا الموضوع:

ـ بكم هزمت البارصا الريال؟

لم يجب أحد. انصرف عبد الله إلى طاولة لعب الورق، وبقي إبراهيم يحملق في شاشة التلفزيون.

جاءت نرجس ثلاث مرات في الأسبوع التالي. وقفت على بعد عشرة أمتار من المقهى، تنتظر عمر. يمضي الوقت بطيئا. تمر ساعة قاسية. وعلى غير العادة لا يظهر عمر. تعود إلى البيت، والألم يعتصر قلبها. لا تريد أن تصدق بأن عمر ذاب مثل فص ملح، واختفى إلى الأبد. تبكي في صمت. تتضرع إلى الله، وتسأل بمرارة، لماذا لم تمنحها السماء حناحين أبيضين، مثل جناحي ملاك تُحلق بهما بين الطيور؟ ولماذا لا ينظر الناس إلا إلى النصف الفارغ من الكأس؟

2

لا يدري كيف تراقص شبح نرجس أمام عينيه. يحدث في بعض الأحيان أن يتكلم همسا مع بعض شخصياته، ويُصغي إليها بإمعان عندما تتحدث معه. وقد يبتسم لبعضها، ويعقد حاجبيه، وهو ينظر إلى بعضها الآخر. وقد تشاجر مرة مع شبح رب عمل جشع، يُمعن بدون حياء في السرقة والكذب، حتى شك بأنه ربما أصابه مسّ. وفكّر في أن يسأل بعض الرواة: هل يحدث معهم ما يحدث له؟ فخشي أن يسخروا منه. والآن ظهر شبح نرجس أمامه، من غير أن تتكئ على دراجة (ميني)، أو تقف على بعد عشرة أمتار من مقهى الحي، وهي تنتظر أن يظهر عمر، وتذهب معه إلى السينما، فتوقّف عن الكتابة.

نظرت إليه بملامح غاضبة ، لكنها خاطبته بصوت هادئ:

ـ لا أتفق معك حول المصير الذي رسمته لي فيما كتبته، وأكره الشفقة.

ثم أضافت بنبرة يغلب عليها مزيج من الحزن والاحتجاج:

ـ من قال للراوي أن إحدى ساقي من حديد؟ وأن صديقي عندما وضع يده عليها، وجدها باردة مثل الثلج؟ ومن منحه الحق في أن يتجسس علينا؟ أنا لا أحب أن يقدمني كواحدة من ذوي الاحتياجات الخاصة، ولا أحب أن أتعرف على شاب فقط من أجل أن يعانقني في ظلام قاعة السينما، ثم يتخلى عني عندما نخرج إلى الشارع، لأثير شفقة القراء. لا، ليس هذا ما أريده.

ابتسم بدهشة، ورد بهدوء:

ـ وماذا تريدين يا نرجس؟

هزت ردفها الأيسر، وفتحت ذراعيها أمام صدرها، ثم أجابت بحركة مسرحية، وهي تبتسم:

ـ أريد أن يقدمني الراوي برجلين من لحم ودم. أليس الراوي صديق يعمل معك؟ أطلب منه أن يطلق العنان لخياله، أو اعمل له نظارات بثلاث زجاجات ليُبصر جيدا؟ وجهي مثل القمر، فأنا يمكن أن أمشي أحسن من أي فتاة سوية، وألتفت متوجسة مثل أية غزالة، أنتقي أجمل العطور، وأختار ألوانا ساحرة لملابسي، وأرقص هكذا!

ثم جرت في ساحة خالية، يرتفع جسدها، وينخفض، تنظر إلى أعلى، وتقف على أصابع رجليها، ويداها ممدودتان مثل جناحين، كأنها فراشة تؤدي رقصة باليه.

استوت في وقفتها، ثم أضافت:

ـ تخليت عن دراجة (الميني)، ولم تعد ساقي تؤلمني.

همس الراوي للكاتب في الخفاء دون أن تحس نرجس بذلك لأنها كانت مشغولة بتسوية كسوتها:

ـ ثمة شيء غريب يحدث! ولا أعرف ما هو؟ نرجس تكون الآن قد تجاوزت الستين سنة. وإذا ما تزوجت، وما زالت على قيد الحياة، فسيكون لها أبناء، وربما أحفاد، أو أنها رحلت عن هذا العالم، وتنام اليوم في قبر بارد. وقد يكون ما تراه مجرد خيال تهيأ لك بأنه يشبه نرجس!

ابتعد شبح نرجس قليلا، ثم استدارت ناحيته، وهي تهدده:

ـ سأرفع قضية ضد الراوي. قدم لك معلومات ليست كلها دقيقة، وكان عليه، قبل أن تكتب وتنشر، أن يتصل بي، ويأخذ رأيي في الموضوع. الحقيقة لها وجوه معددة تناقض بعضها أحيانا. عمر ليس شابا سيئا كما جعل الراوي القراء يعتقدون. أحببت عمر لأنه إنسان لطيف عشت معه لحظات جميلة، ولو لفترة محدودة. السعادة مثل قطعة سكر لا تحلو إلا عندما تذوب. وعندما ذابت قطعة السكر افترقنا، لأنه كان يجب أن نفترق، لنحلم بما لم نفعله، أو نحققه ونحن في أحضان بعض. أليس هذا هو الحب؟

نظر إليها مليا حتى يتأكد من أنها هي نرجس، التي هجرها عمر بسبب النصف الفارغ من الكأس، كما أخبره الراوي، ثم قال:

ـ ربما أخطأ أحدهم التقدير! مجتمع بكامله أصبح بعضه أعرج، وبعضه أعمى، وبعضه أبكم، وبعضه أحمق. كلنا نعاني من إعاقة ما يا نرجس!

ووضع يده على صدغه مشيرا إلى عقله، ثم أضاف:

ـ لكن أخطر إعاقة نُعاني منها هنا. وهذه هي الكأس المكسورة!

المعجم :

ـ (المعجون) مخدر يصنع من القنب الهندي الذي يطبخ مع السمن ويخلط بالمكسرات ودقيق المحمر و(رأس الحانوت) وهو عبارة عن مجموعة من التوابل التي تسخن الجسم.

ـ دراجة (ميني): دراجة قصيرة ظهرت كموضة في مغرب السبعينات والثمانينات من القرن الماضي .

ـ المرشد السياحي المزور : المرشد الذي لا يتوفر على رخصة قانونية.

ـ بائع (الديطاي): بائع السجائر بالتقسيط.

المرأة الشبح

1

فتح الواتساب. لاح فيديو يوثق لمسيرة قيل بأنها لمثليين خرجوا يتظاهرون في أحد شوارع مراكش. والعهدة على من رمى الشريط في وسائل التواصل الاجتماعي. سمع ضحكات نسائية تتعالى من هنا وهناك. فحص الوجوه. بدا شكل أحدهم مشمئزا وغريبا. قصير القامة، بدين بمؤخرة بارزة، وشارب ولحية كثة. تساقطت أسنانه الأمامية. بالوصف الشعبي فهو (مخنفر)*. لم يحقد عليه، ولم يتضامن معه. وقف في منزلة بين المنزلتين. الله خلق الرجل رجلا، وخلق المرأة امرأة. رأى في الماضي حالات قليلة ونادرة تشذ عن القاعدة. لا تخرج إلى الشارع ولا تتظاهر. لكن الناس طلبوا من الله أن يسترها ويعفو عنها.

تخيل أنه إذا خرج عليه هذا المثلي في منطقة معتمة وخالية من الناس، سيطلق ساقيه للريح كما حدت لمهدي رحمه الله.

ـ لكن ماذا حدث لمهدي ؟

2

ـ تريد أن تعرف ما وقع لمهدي! افتح أذنيك جيدا.

مهدي رحمه الله عندما يكون مزاجه رائقا، يروي لشباب الحي حكايات غريبة. قال لنا مرة بأنه رأى امرأة تشبه جارية خرجت من إحدى ليالي ألف ليلة وليلة، لم يمسسها إنس ولا جان. حدث ذلك منذ زمن بعيد. رآها تلتحف إزارا شفافا أبيض، شبه عارية، قامتها الفارعة كعود الخيزران. يجري الماء في جسدها مثل غصن البان. تُنافس القمر بأن تصعد مكانه لتنير الكون. لم يكن في السماء قمر

تلك الليلة. كأنه نزل إلى الأرض، وتقمص صورتها. لوحت له بيدها، ثم مدت ذراعيها من بعيد، كأنها تناديه، وتريد أن تحتضنه. كل المآسي التي عاشها في حياته مرت في شريط سريع أمام عينيه. هل استجاب الله أخيرا لدعواته الباطنية في أن تكون بجانبه امرأة مثل باقي الناس، يمنحها قلبه، وينام بين ذراعيها ؟ لا لم يطلب شيئا من هذا. هذه ليست امرأة عادية هذه ملاك هبط من السماء!

كان قادما في وقت متأخر من الليل. مر من طريق المسبح المحاذية لعرصة مولاي عبد السلام، ما بين السور وباب المسبح على اليمين وراء الموقع القديم لثانوية بن يوسف. طريق خالية يغطيها ضباب خفيف، وامرأة تتهادى في مشيتها بين الحفر والأتربة والمرتفعات المحاذية لها. كأنها ترقص، وتتلألأ ضياء مثل الدر المنثور. أطلقت الضفائر السوداء خلفها، يتلاعب بها النسيم البارد، ويرميها فوق الإزار الأبيض. كان المكان معتما بظلمة خفيفة. ضوء خافت يلوح من مصباح كهربائي بعيد. أسرع الخطو، وهو يلتفت، والمرأة تسير خلفه مادة ذراعيها، كأنها تتوسل إليه أن يقف. أحس بدبيب يتسرب إلى جسده من تحت إلى فوق. تصبب العرق من جسمه . فجأة حدث ما لم يكن في الحسبان. خفض بصره، ورأى رجليها. انتابه الذعر! شيء لا يصدق! امرأة بهذه الفتنة وهذا الجمال لها أقدام ماعز . تردد داخله صوت ينبعث من حكايات قديمة ترويها الجدات لأحفادهن :

ـ عيشة قنديشة ! والله هي ! هكذا وصفها الناس الذين خرجت عليهم في الماضي. في كل مرة تظهر بشكل مختلف. ها هي الآن تمشي وراءك بقدمي معزة !

أطلق ساقيه للريح. يحتاج فقط إلى قطع مسافة تقارب ثلاثمائة متر ليصل إلى شارع محمد الخامس. كلما أسرع، أحس وكأن الشارع دخل معه في سباق لا ينتهي. لم يقف حتى كاد قلبه يخرج من مكانه. شعر بجفاف في حلقه. نظر خلفه وجد شبح المرأة قد اختفى. جلس على الرصيف لالتقاط ما تبقى من أنفاسه. لعن دخان القنب الهندي الذي أضعف قلبه، وحد من سرعته في الجري. وقف على

رجليه. قال لنفسه يجب الابتعاد من هذا المكان. قطع بضع خطوات في طريق الجبل الأخضر، ثم عاد أدراجه. المكان أيضا مظلم في وسطه. خاف أن تخرج له المرأة التي تشبه قدماها قدمي معزة من بين الأشجار الباسقة داخل الجدار المحيط بفندق المرابطين. لا بأس من السير في الشارع. أعمدة الكهرباء والسيارات التي تمر بين الفينة والأخرى خير مؤنس حتى يصل إلى مقهى الكتبية، ويميل على شارع الرميلة ثم يدخل مع باب القصور. لولا أن حلقه لا زال ناشفا لتوقف لتدخين غليون (سبسي) أو اثنان. الأزقة تبدو قاحلة مثل الثلث الخالي من الأرض، لكن الناس تغط في نوم عميق وراء هذه الجدران. يكاد يشعر بأنفاسها تهبط وتعلو، وهو ما بعث في نفسه شيئا من الطمأنينة. ما الذي أصابه؟ من قلب حياته رأسا على عقب؟ لا يخرج إلى التجول إلا في الوقت الذي ينام فيه الناس. ولا ينام حتى يستيقظ الناس.

لاح باب (الفَنْدَق) على بعد أمتار من السقاية. توقف، ونظر وراءه. مد يديه للماء، بلل حلقه. غسل وجهه، شرب. نزع قبعته، رغم انخفاض درجات الحرارة مرر الماء على جلد رأسه. أحس بأن الدم عاد يجري في عروقه كأنه استيقظ من البنج. أخرج (السبسي) و (المطوي) وعود الكبريت. أخذ نفسا عميقا. عادت إليه الروح من جديد.

بعدها أقعده المرض ثلاثة أيام لم يغادر خلالها الفراش.

المعجم:

- (مخنفر): قبيح الوجه.

المقاطعة

عبد الله ولد الجن يوم يعمل، ويوم لا يعمل. الشغل نادر هذه الأيام. صَدّق في البداية حكمة الأجداد (الفْياقْ بَكْري بالذهب مَشْري)*. ظل لسنوات يستيقظ في الفجر ويتوضأ ويصلي، ويذهب إلى الموقف حتى منتصف النهار، ولا يشتري أحد صلاته للفجر، واستيقاظه المبكر، لا بذهب ولا بفضة.

محجوبة زوجته حلمت بأن تحصل على بطاقة تخول لها الاستفادة من قفة رمضان، فتوسلت المقدم، ثم القائد لأكثر من ثلاثة اشهر بدون جدوى.

عاد عبد الله إلى البيت في المساء. اليوم الثالث من رمضان والبيت يُصَفّر. عبد السلام الصباغ ناوله أجر يومه الذي لا يتعدى ثمانين درهما (بالكشيفة)*.

تذكر بالأمس كمية الشتائم التي كالتها له محجوبة زوجته. لم تترك فيه نقيصة إلا وذكرتها له. بكت من شدة القهر، وشكت أمرها لله، ورفعت يديها إلى السماء:

ـ أي ذنب اقترفت يا ربي؟ ألست امرأة كباقي النساء حتى أُحرم من أبسط شروط الحياة ؟ لا شغل، لا أكل، لا شرب، لا لباس، لا سكن، مثل باقي النساء!

إذا كان الأمر يتعلق بالصيام، فانا صائمة منذ زواجي بك يا عبد الله!

خرج من البيت غاضبا، وحاول إقناع نفسه بأنها تبالغ، لتنغص عليه يومه.

وقف أمام الدرب متوترا بجانب بعض الشبان، يسترق النظر إلى ما يرونه في هواتفهم من صور وفيديوهات، وأخبار عن المقاطعة.

سمع شابا يقرأ خبرا على أصدقائه، يتعلق بسيدة تعمل بإحدى شركات الحليب، تتقاضى أكثر 20 مليون سنتيم في الشهر، متزوجة من ميلياردير، ولديها عدة شركات، وبأنها هي التي دفعت المسئول الإعلامي في الشركة إلى وصف المقاطعين بالخونة.

كاد يجن ماذا يمكن لشخص سواء أكان رجلا أو امرأة أن يفعل بمبلغ كهذا في كل شهر؟

سمع آخر يعلق على فيديو لمسئول حكومي رد على صحافي، سأله عن موقفه من المقاطعة فأجابه بأنه وزير، وليس مواطن من الزنقة.

شاهد في هاتف آخر فيديو لمسيرة يرفع فيها المتظاهرون شعار :

(الفوسفاط اوجوج بْحورا، عَيْشين عيشة مقهورا).

قال شاب بالجوار: ثمن السردين ارتفع اليوم إلى ثلاثين درهما.

ردد داخل نفسه: إذا كان الذين يقاطعون بعض السلع، إما خونة، أو مواطنين من الزنقة، فأين يُصَنّف من يقاطع هذه السلع منذ ولادته، لأنه لا قدرة له على شرائها أصلا؟

نحن بمنطقهم أكثر من خونة، وبشر من آخر درجة. نحن شركاء في القهر. هؤلاء الناس الذين طلعوا إلى الرباط على ظهورنا باعونا الأوهام، وتحالفوا مع التماسيح والعفاريت وسرقوا الوطن.

المعجم :

- (بالكشيفة): بعد تلكؤ وتنصل.

الهوى غلاب

تعوّد في بداية فصل الصيف على أن يستيقظ باكرا، ويذهب إلى المخبزة قبل الساعة السابعة صباحا بقليل، ليقتني لوازم الفطور.

رغم أن موقع المخبزة وسط حي شعبي على مفترق الطرق، فقد اكتسبت شهرة كبيرة جعلت الناس يقطعون ثلاثة كيلومترات، أو أكثر من أجل اقتناء الخبز والحلويات.

صاحب المخبزة رجل خمسيني، يرتدي جلبابا رماديا شفافا، وتغطي لحية خفيفة شديدة السواد وجهه الأسمر. قيل بأنه سلفي يدير العديد من المخابز التي تحمل نفس الاسم بالمدينة.

وضع دراجته أمام الباب، وصعد حوالي أربع درجات ليدلف إلى الداخل. ومن عادته أن يلتفت باستمرار إلى المكان الذي وضع فيه الدراجة، خوفا من أن تُسرق في غفلة منه.

فجأة اقتحمت المخبزة امرأة في الثلاثينات من عمرها، يغطي كحل شديد السواد أهداب رموشها. تعضّ على شفتها السفلى بغنج أنثوي يتقطّر حياءً، وكأنها تمثل بإتقان دور مراهقة تسقط في شباك الحب لأول مرة. طول قامتها جعل جسمها لا بدينا ولا نحيفا، تضع خمارا أسود شفافا على رأسها، وترتدي لحافا أزرق خفيفا يغطي بقية جسدها، يشبه لباس السلفيات غير أنه يختلف عنه في إظهار مفاتن جسدها. بدت كأنها نجمة هبطت لتوها من السماء. فعلت بصاحب المخبزة ما فعلت مليحة مسكين الدارمي* بالناسك المتعبد، فقام مشدوها من مكانه، وكأنهما على موعد. طرد أحد عاملا كان بجانبه إلى الداخل، وبادلها تحية الصباح، وهو يضع يديه على صدره، وكأنه قد شمر للصلاة. وبدأ يلبي طلباتها بنفسه. وبدلا من أن يأتي لها

بالطلبات دفعة واحدة، عمل على تقديمها بالتقسيط ، حتى يظفر ببقائها في المخبزة أطول مدة ممكنة.

بدا الرجل مرتبكا، وليس على حاله كما يقول المغاربة. في الجهة الأخرى قدم أحد العمال، وسأل أحمد عن طلباته، فلباها بسرعة.

وهو يتابع المشهد عن قرب، خمّن بأن (الجنية) تتعمد إحراج السلفي لهزمه، وإخراجه من جلبابه، وأنها ليست المرة الأولى التي تأتي فيها إلى المخبزة في هذا الوقت.

أخذت طلباتها، وعرّجت على الباب. ردت عليه صلاته وصيامه بطريقتها الخاصة ، فأطلقت آخر رصاصة، وهي تنزل الدرج، وترفع الثوب عن ساقيها، مثل ما فعلت الملكة بلقيس عندما دخلت قصر النبي سليمان عليه السلام. ركبت سيارتها، واختفت في أحد أزقة الحي المجاور.

جسمها البض وشكلها وحركاتها المتناغمة توحي بأنها تشتغل راقصة في أحد الملاهي الليلية، ولا تعود إلى البيت إلا في فترة الصباح.

وهو في طريق العودة، تذكر نجيب محفوظ، والسيد أحمد عبد الجواد بطل الجزء الأول من الثلاثية رحمهما الله، وقال في نفسه:

ـ مهما تطرف الناس، وبالغوا في مظاهر التدين، فإن الهوى غلاب.

الهامش:

مسكين الدارمي: هو ربيعة بن عامر التميمي، شاعر أموي، وسمي الدارمي نسبة لجده دارم. وهو صاحب قصيدة "قل للمليحة ذات الخمار الأسود" التي غناها المطرب العراقي الشهير ناظم الغزالي.

الوعود الكاذبة

يجلسان كل مساء فوق كرسي من الاسمنت، يُعطي بظهره للمقهى. حديقة لا يتجاوز عرضها عشرين مترا ، تفصل بين شارعين جانبيين ، وعلى طولهما تمتد المقاهي، ومرائب بيع السيارات المستعملة. ريح جافّة وحارّة تهبُّ مع سقوط العتمة، وخفوت ضوء المصابيح. عندما يجدان مقعدهما المُفضّل مشغولا، ينتظران لبضعة دقائق، حتى يفهم الجالس نفسه وينهض، ويترك لهما المكان.

لا يرى بعض زبائن المقهى غير ظهريهما. يُمرّر يده حول عنقها، وتفعل مثله. تبادُلُهما القبل الحارّة، جعل البعض يُخمّن بأن يداهما الثانيتين ربما تتسللان إلى مناطق حساسة مثل الصّدر أو الصرّة. تضحك الفتاة وتسترخي، ثم تضع خدّها على كتفه. يُبعدان وجههما عن بعض، ويتحدثان قليلا، ثم يسحبان يديهما من المناطق المحظورة، وينتظران حتى يمرّ من أمامهما بعض النساء برفقة أبنائهن. يجتاز الأطفال المقعد، وهم يلتفتون للتأكد من أن الجالسين يفعلان شيئا لا يرونه إلا في الأفلام والمسلسلات والغرف المظلمة.

تقول امرأة لصاحبتها، وهي تتعجب:

ـ انظري يا أختي ! كيف تركته التي لا تُسمّى، يضع يده بين فخديها بدون حياء !؟

تردُّ عليها المرأة البدينة بامتعاض:

ـ الله يمسخها، في زمننا لم نكن نقدر حتى على السير بجانب من نحب.

ينبّه الطفل أمه:

ـ ماما ماما إنه يضع يده فوق ركبتها وليس بين فخديها.

تنهر المرأة ابنها وتطلب منه أن يصمت، فهو لا زال صغيرا على فهم هذه الحركات، ثم تُوقّع على كلام زميلتها وتُضيف:

ـ كنّا نمشي مُتباعدين، نرتعدُ ونطلبُ من الله ألّا نلتقي مع فرد من العائلة، أو من الحي، حتى لا ينكشف أمرنا، وتتكسّر عظامنا، ونُمنع من الخروج بقية عمرنا.

قالت المرأة البدينة:

ـ كان (الزيّار)*، عِشنا حتّى شُفنا قلّة الحياء والفجور في هذا الزمن الأغبر.

لعنت صديقتها القنوات والمسلسلات التلفزيونية التي تسبّبت في هذه الكوارث. غير أن المرأة البدينة خالفتها الرأي هذه المرة، وقالت:

ـ نعم نشاهد أكثر من ذلك في المسلسلات، ونتمنى، فقط نتمنى لو كُنّا مكان البطلات، نرتدي المعاطف الجميلة، وننزل من السيارات الراقية، ونسكن الفيلات الفخمة، ونرتمي بكل جوارحنا في أحضان من نحب. لو فعلت مثل بطلة مسلسل، وذهبت مع صديقها إلى مقهى أو مطعم بالحي الشتوي* لحسدناها. لكن أن ترتمي في حضن (شمكار)* بحديقة مهجورة، لا يملك ثمن فنجان قهوة، فتلك بهدلة وليست حبا.

وافقتها المرأة الأولى الرأي، ثم ضغطت بأصبعها على محجر عينها اليمنى، وأنزلته قليلا إلى الأسفل:

ـ ويلي ! ويلي ! أنظري إلى قميصه، الله يَقطَع لهما الجذر، بهدلا الحب ومسخاه. عندما كنت أرى حسن قبل الزواج، وهو يمر من الحي، ويرتدي أجمل ما يملك من الملابس، ويحلق ذقنه، ويُصفّف شعره، ويستعمل العطر، وكأنه ذاهب إلى العرس، كانت العيون وحدها تتكلم. لم يلمس جسدي حتى كتبنا العقد.

قطعت المرأتان وأبناءهما الشارع، ومالتا إلى اليمين، فابتلعهما الزّحام.

جرى الوقت سريعا، مرّ حوالي ساعة على صلاة العشاء. وقفت الفتاة، سوّت ملابسها وعقدت شعرها، وهي تنظر ناحية المقهى، وتتحدث مع زميلها، كأنها

تُنبّهه إلى أن وقت العودة إلى البيت قد حان ، ولم تعد تتحمّل الإجابة عن سؤال والديها أين كانت، فتجيب عند فلانة، ثم أضافت وهي مُستاءة:

ـ حبل الكذب قصير، وسأقع اليوم أو غدا. المسألة مسألة وقت.

ردّ وهو يتحسّر على تحوّل حُلمه إلى سراب:

ـ لو وفّى ولد الكلبة بوعده، لتحقّق ما خطّطنا له، ووجدت نفسي الآن رفقتك، نجلس كزوجين في بيتنا، أو نتجول بحرية حتى وقت متأخر. لقد اشتغلت معه في الانتخابات بدون أجر، مقابل وعد بأن يجد لي شغلا في شركة أحد أصدقائه، لكنه اختفى ولم يعد يأتي حتى لزيارة والديه. بعض أبناء الدرب قالوا بأنه يأتي مرة أو مرتين في السنة متخفيا بعد منتصف الليل. لقد تبين في النهاية بأنه ولد الحرام، لم يعمل خيرا مع والديه، فكيف سيعمله معي أنا؟

سارا بضعة خطوات، سحبت يدها من يده، وتقدمت أمامه، وتبعها من الخلف كأنهما لا يعرفان بعضهما البعض، وانحرفا يمينا، ثم ابتلعتهما عتمة الزقاق.

المعجم

ـ (الزيّار): التشدّد

ـ (شمكار): متشرد

ـ الحي الشتوي: من أرقى الأحياء بمدينة مراكش يقع بشارع محمد السادس.

زياد

وقف أمام باب الدرب يحمل بقجة* جمع فيها حاجياته. أحس بغربة باردة تلفح العرق الذي بدأ يتصبّب من جبينه. هنا ترعرع وكبر. كل بيوت الحي تعرفه. الآن هو حر. يمكنه الذهاب حيت يشاء. يستيقظ وينام في الوقت الذي يختاره. لن يسأله أحد بعد اليوم لماذا تأخر، أو أين كان؟ لم يخطر جحيم كهذا بباله. سقطت دمعة من عينه. حجبت ظلمة خفيفة نور الشمس. سأل نفسه إلى أين سيتجه؟

زياد رجل شديد السمرة، رأسه صغير، شعره أكرد، عيناه ضيقتان إلى حد يجعلك تعتقد بأنه أعمى، قصير القامة، نحيف الجسم. خرج من الرياض الذي عمل وعاش فيه خادما حتى نهاية الستينات.

بعد كل هذه السنين، قدموا له قليلا من المال، يكفي لشراء تذكرة سفر، وطعام الطريق، وقالوا له أنت الآن حر.

تذكر أن له أما وأبا وإخوة، وربما أعماما وأخوالا لا يعرف عددهم إلا الله. لكن انقطعت بينه وبينهم السبل منذ كان طفلا صغيرا. كل ما استطاعت ذاكرته الاحتفاظ به هو صور بدون ملامح، لهجوم لصوص ملثمين على قرية نائية، وسلب نسائها وأطفالها، ونهب خيراتها واستعباد رجالها. وبعد ذلك قطع طريقا طويلا، وانتقل بين أيدي كثيرة، حتى انتهى به المطاف هنا عبدا في الرياض. بعد كل هذا العذاب، أحس الآن بأن طعم الحرية مار أيضا.

الجدران صامتة وحزينة مثله. ربما تعرف أكثر مما يعرف عن نفسه.

مال زياد على اليمين، وجلس بالقرب من (الفرناتشي)*. سمح له صاحب الحمام بالنوم في الداخل بالقرب من الموقد. في الصيف ينام بالممر القريب من الباب.

أشفق عليه سكان الدرب. سمحوا له أن يقوم ببعض الأعمال المتقطعة مقابل ضمان لقمة عيشه.

وهو يمر داخل الدرب، تنادي عليه امرأة من خلف الباب:

ـ تعال يا زياد، خذ معك وصلة الخبز إلى الفرن.

وتنفحه ببعض الفرنكات، أو الثياب القديمة.

يلتقي بأحد السكان أمام الدرب، ويطلب منه:

ـ إذا أوصلت الخبز إلى الفران، خذ من دكان الحاج أحمد قنينة الغاز إلى البيت.

هكذا بدأ ينسى مأساته في النهار بقضاء حاجيات الناس مقابل لقمة العيش. أما في المساء فلا بد أن يدخن بعض (غليونات) القنب الهندي، لتجعله يسبح في أحلام لذيذة، وتُبعد عنه كل الآلام والكوابيس التي تغزوه في الليل، وتطرد النوم من جفنيه.

في رمضان، بعد انتهائه من العمل، يجلس بين باب (الفرناتشي) ومتجر البقالة. يفترش (الكارطون)، ويضع صينية الفطور الذي تصدقت به إحدى الأسر أمامه. الحريرة والقهوة والحليب والبيض والتمر والحلوى الشباكية والرغيف المدهون بالزبدة.

لا يُؤذن لصلاة المغرب في فصل الصيف إلا بعد اقتراب الساعة الثامنة. زيدون يتعجل الفطور ساعة قبل الوقت المحدد. يخرج المطوي والسبسي*. يملأ الشقف* بالكيف. يشعل عود ثقاب، ربما ليتأكد من وجود ظلام يوحي بان الفطور قد حان وقته . ينظر إلي النار بعينيه الضيقتين حتى تحترق أصابعه . يشعل عود ثقاب آخر . وهكذا دواليك . ربع ساعة تقريبا تفصله عن الآذان . يشعل السبسي بحركة عصبية ، يدخن ، يتذوق القهوة والحليب، تنفرج أساريره كمن أزال عن كتفه حملا ثقيلا.

كل يوم يصوم حتى يقترب الآذان ثم يشعل (السبسي). أبناء الحي يراقبونه من بعيد. يضحكون وهم ينتظرون الآذان قبل الدخول إلى منازلهم لتناول وجبة الفطور.

عندما تنام المدينة في فصل الخريف، يجلس وحيدا. ينفخ في دخان الغليون كرات صغيرة تتبدد أمامه وتتحلل ثم تختفي. تارة يتخيل نفسه طفلا صغيرا يلعب رفقة إخوته في فناء البيت. وتارة يتصور أمه وهي تداعب بأناملها الرقيقة شعره الأكرد، وتارة يرى نفسه عريسا يجلس بجانب فتاة سمراء مثله، اختارتها أمه بعناية فائقة، ويلبسان ثيابا بيضاء مثل نور القمر.

كل ليلة يخترع قصة جديدة، وكأنه يتناول مسكنا يأخذه إلى نوم عميق. نوم قد يخترقه في بعض الأحيان، صراخ أهل القرية، وهم يفرون في كل الاتجاهات عُزّلا وحُفاة. تُداهمهم الخيل، وتمزق العصي والسياط أجسامهم، وتقيد الحبال أياديهم وأرجلهم، وتعزل الذكور عن الإناث، والصغار عن الكبار، فيختلط العرق بالدم والدمع.

صور يعتقد أنها تشبه يوم الحشر، توقظه فزعا، وتفسد عليه خيالاته اللذيذة، وتعيده سنوات طويلة إلى الوراء.

المعجم:

ـ بقجة: قطعة قماش يجمع فيها حاجياته.

ـ (الفرناتشي): الموقد الخاص بتسخين ماء وأرضية الحمام التقليدي.

ـ (المطوي): كيس صغير من الجلد يخصص للقنب الهندي.

ـ (السبسي): غليون من قصب يدخن فيه القنب الهندي.

ـ (الشقف): قطعة صغيرة من الطين لها منفذ يشدها إلى القصب ومنفذ آخر يوضع فيه قليل من القنب الهندي.

طعام العُرس

تأخرت به الأيام متشردا، وهو في أرذل العمر. يبيت أينما سقط به جسمه، قرب أي جدار، أو بجانب ضريح ولي صالح، رغم أنه يفضل النوم بالمقابر بعيدا عن ضجيج الأحياء.

لا أحد يعرف كيف أصبح متشردا. البعض قال بأنه خسر كل ثروته في اللهو والقمار. والبعض رأى بأن وراء مأساته قصة حب حزينة. وفريق ثالث قال لا يفعل ذلك إلا من أكل إخوته حقه في الإرث. يسكر حتى الثمالة. عندما يستيقظ متأخرا في منتصف النهار، يصحو لدقائق معدودة، ثم يعود إلى سجنه الأبدي.

ومن كثرة الشرب والتدخين أصابه هذا المساء جوع شديد، فسمع غناء جوقة في أحد أحياء المدينة القديمة. وخمّن بأن به عرسا. ظن مع السكر بأنه في الأعراس يغلب على الناس الكرم، فيستقبلون عشرات الضيوف، ويقدمون لهم أفخر أنواع الأطعمة. يأكلون ويشربون، ويفيض الخير.

وهو قادم يترنح بجسمه النحيف، يجر خلفه سنواته الستين، عاش أكثر من نصفها يزرع البسمة على شفاه الناس فوق الخشبة، وعبر الأثير، بدأ يتحسس مكان الغناء بين البيوت بأذنيه. حاول إسكات أمعائه بتخيل نوع الطعام الذي سيتذوقه الليلة. وكلما اقترب من مكان العرس سال لعابه، حتى انتهى به المطاف أمام الباب. سأل أهل البيت شيئا من الطعام، فطلبوا منه الانتظار. تخيل الوجبة التي ستُقدّم له، ورأى بأنها إما تكون دجاجا مُحمّرا، أو لحما بالبرقوق أو هما معا؟ بل افترض بأنهم سيقدمون له طائرا كاملا من الدجاج الرومي. سيتناول نصفه، ويحتفظ بالنصف الثاني.

وهو ينتظر، وصوت الموسيقى الصاخب يطن في أذنيه، تخيل نفسه في أيام العز يلبس البذلة الزرقاء، ويجلس بين الضيوف، يحيط به المعجبات والمعجبون، ويأخذون معه صورا للذكرى، ويوقع لهم على المناديل. كاد يجهش

بالبكاء. أنقذته امرأة مسنة من ذكرى أيقظت عليه المواجع، ذكرى لاحت واختفت بسرعة مثل البرق، وفاجأته بصحن من العدس البارد، وكسرة خبز. صُدم وهو يأخذ منها الطعام مُكرها. لم يكن أمامه خيار آخر لسد جشع أمعائه. انتابه إحساس بالخيبة ف(دمدم)* مع نفسه:

ـ أولاد الحرام! كبروا في أيام الجوع. يعملون حسابا للمساكين حتى في أيام الأعراس، فيطبخون لهم قليلا من العدس، لكي لا يخسروا فيهم لقمة من الطعام الفاخر.

المعجم:

ـ (دمدم)*: نطق بكلام غير مفهوم

عبده النادل

منذ عشرين عاما يناديني الزبائن بعبده النادل. اسمي الحقيقي عبد الله. عمري اليوم خمسة وأربعون سنة. لي زوجة وثلاثة أبناء، ولد وبنتين. أسكن غرفة في بيت مشترك مع أسر أخرى في هامش المدينة. أتقاضى أجرا شهريا لا يتعدى ألف درهم. أوقع للحاج صاحب المقهى على الورق في نهاية كل شهر أني استلمت ثلاثة آلاف درهم. عشرون عاما وأنا مضطر لأكذب، وأصلي في السدة الفوقية عندما تخف الحركة داخل المقهى، وأشكو أمري لله، وأحلم بأجري الحقيقي. الحاج مثلي أيضا يكذب، ويؤم بنا الصلاة، ويسرق ثلثي أجري الحقيقي. قال لي مرة بأن صلاة النهار تمحو ذنوب الليل. لا أعرف ما هي الذنوب الأخرى التي يقترفها الحاج في الليل.

أبدأ عملي في الساعة السابعة صباحا. أتناوب أنا وزميلي على خدمة الزبائن. الحاج صاحب المقهى نظم لنا توزيع المهام. يوم لغسل الأواني والوقوف داخل (الكونتوار) لمساعدة قريبه في تهييئ الطلبات، وبيع السجائر بالتقسيط للزبائن، ويوم للعمل. لا أستفيد من يوم عطلة في الأسبوع أو في السنة. أصبحت مثل حمار الطاحونة. حتى عندما يتنازل الحاج، ويمنحني عطلة لا أعرف أين أذهب، فأعود إلى المقهى!

أطوف على الطاولات طيلة اليوم. عندما يلتحق زبون جديد بالمقهى أقف بجانبه كما نصحي الحاج منذ عشرين سنة، وأقدم له التحية، واستمع إلى طلباته، وألبيها في أسرع وقت ممكن. عندما يجلس زبائن كُثُر في لحظة واحدة، وبطاولات مختلفة، أقف وانظر وابتسم واسمع: قهوة سوداء عادية. قهوة

بالحليب، قهوة (نص نص)* ، براد شاي بدون سكر، زجاجة كوكاكولا! وألبي الطلبات.

بعض الزبائن عندما ينهضون يؤدون ثمن المشروب، ويتركون لي بقشيشا يعتبره الحاج وقانون الشغل جزءا من الأجر الذي أوقع عليه في نهاية الشهر. كل المقاهي تعمل بنفس العرف سواء سيرها حجاج أو سكارى.

دخل البقشيش يرتفع وينخفض مثل حمى الأطفال في ليل بارد. أعمل بمقهى في حي شعبي. أغلب زبائنه من العمال والموظفين الصغار. عندما يتقاضون أجورهم في بداية الشهر يأتون باكرا إلى المقهى. يحلقون ذقونهم، ويرتدون ملابس نظيفة، وبعضهم يستعمل العطر، ويطلبون سجائر من النوع الجيد، ويجودون علي بدرهم أو أكثر.

بدءا من الأسبوع الثاني من الشهر ينخفض دخل البقشيش بشكل تدريجي حتى يكاد ينعدم في نهايته. وقد اضطر إلى قرض بعضهم ثمن السجائر.

الكثير من الزبائن عندما يجلسون يسألون عن الجرائد، ويشتمون رئيس الحكومة وبعض وزراءه، ويستعينون أحيانا بهواتفهم النقالة في تتبع الأخبار، وتبادل الأشرطة في (الواتساب).

بعضهم يتبادل أحيانا صورا لنساء بدينات وجميلات، سبحان من خلقهن. يلبسن ثيابا فاضحة لا تستر سوى عوراتهن.

يتحدثون صباح مساء عن الترقيات والزيادات في الأجور والضرائب وإصلاح أنظمة التقاعد وقانون الشغل ورؤسائهم في العمل. وينسون ذلك عندما تلعب (البارصا) أو (الريال). أحيانا يتبادلون الأخبار عن الإضراب. ويشتمون النقابات والأحزاب، ويقسمون بأغلظ الأيمان ألا يصوتوا على أحزابهم ونقاباتهم في الانتخابات القادمة. عندما يُضربون عن العمل يملئون المقهى عن آخرها. ويتحدثون مع معارفهم وأصدقائهم في الهواتف.

لا أستطيع أن أفعل مثلهم. مقاهي كثيرة طردت عمالها لمجرد أنهم تمردوا، وطالبوا بتسليمهم نفس الأجر الذي يوقعون عليه. لم يقف بجانبهم أحد. فعادوا إلى العمل في مقاهي أخرى بنفس الشروط بعد أن عانوا من البطالة.

أتعجب لزوجتي كيف تطعم الأبناء، وتزود البيت بالدقيق والعدس والفول واللوبية والزيت والسكر والشاي والغاز. ومن أين تأتي لهم بالأغطية والملابس القديمة، وترافق أصغرهم إلى المدرسة بميزانية تقل أو تزيد عن ألفي درهم، يلتهم منها الكراء والكهرباء والماء الثلث. عندما أمرض يوما أو يومين، ولا أذهب إلى العمل تُصبح زوجتي مثل دولة في حالة حرب.

أحب عيد الأضحى مثل جميع الفقراء الذين لا يأكلون اللحم إلا في المناسبات. وأكرهه لأنه يُطير النوم من عيني أكثر من شهر على قدومه. وكلما اقترب أجله كلما ازداد رعبي إلى درجة أني عندما اسمع مأمأة أي خروف في المنام أو في اليقظة، أقفز ذعرا من مكاني.

المعجم:

- (قهوة نص نص): نصف قهوة ونصف حليب.

عتبة الفقر

الآن ترقى اجتماعيا. قطعت الإحصائيات دابر الشك باليقين، أنه أصبح يملك في جيبه عشرين درهما. رغم تجاوزه لعتبة الفقر، فإنه فقد ذاكرته. لا يملك بيتا، أو لا يتذكر أين كان يسكن. تزوج في الخيال حورية تفِيضْ جمالا. اعتاد النوم مع خيالها في العراء. لا يؤدي ثمن الكهرباء. كل مصابيح الأزقة والطرقات ملك له. عندما ينهض من تحت الجدار عليه أن يحمل متاعه. متاعه خفيف إلى درجة أنه لا يحتاج إلى حقيبة. مشكلته مع المرحاض. زوجته في الخيال منحها الله قدرة جعلتها مثل الملائكة، لا تأكل ولا تلبس ولا تشرب ولا تلد ولا تذهب إلى مرحاض. تظهر بالقرب من نهر عارية كما ولدتها أمها، تأكل من شجرة تفاح، ، وما هي بتفاح. وتستر عورتها بورقة توت، وما هي بتوت. يفوح منها عطر نفيس، يكاد يطرد عنه الرائحة الكريهة المنبعثة من جسمه. يتمنى كل يوم لو اختطفته مع العشرين درهما إلى عالمها الدافئ. لكن هيهات! بينه وبينها جسور دونها سبعة نجوم. عليه القتال في سوريا وليبيا والعراق، أو التَزَنُّر بحزام ناسف. كل هذا الفضاء الممتد أمامه مرحاض. بالأمس بنى أجداده السقايات، وكان الناس يُسقَوْن الماءَ بالمجان. اختفت هذه المآثر. بحث عن الماء بشكل مضن. لن يستحم، ولن يغسل وجهه. لن يتوضأ، ولن يذهب إلى المسجد، إلا إذا دفع ثمنا لذلك.

تحسس القروش في جيبه، وفرك يديه من شدة البرد. درجات الحرارة انخفضت بشدة هذه الأيام. تحسس وجهه. هذه اللحية اللعينة لم يحلقها منذ مدة. يحك بشدة ذقنه. غبار يغطي شعر الرأس الذي نما هو الآخر بسرعة. إذا أراد حلقهما، لا بد أن يتنازل عن العشرين درهما للحلاق، وليفعل ذلك عليه أن يصوم يوما

كاملا بليله ونهاره. سعل بقوة. بصق يمينا. دم اسود امتزج بلعابه. بصق يسارا. لا يذكر أنه دخل مستشفى، أو زار طبيبا، أو اقتنى دواء من صيدلية.

فرك يديه من شدة البرد، ووقف بجانب مطعم شعبي في الهواء الطلق بمحاذاة السور. ثلاثة كراسي خشبية مستطيلة فقدت لونها الأصلي أمام طاولة أعلى في الوسط، تكاد تخفي صاحب المطعم بقامته القصيرة وجسمه النحيل. بجانبه إبريق كبير من الشاي، وقدر يغلي فوق النار، وزجاجة من زيت الزيتون، وبعض التوابل. وجبة في صحن صغير من (البيصارة)* مع قليل من الزيت البلدي، وخبزة من حجم صغير ، وكاس شاي بستة دراهم. في الشمال أضفوا عليها نكهة خاصة، فنطقوها بلكنة اسبانية (لا بِّيصارْ). تحسس جيبه. لم يغامر ويجلس إلى جانب الزبائن. سيتناول فطوره في الخيال إلى جانب حوريته. اتجه إلى ساحة كبيرة. تخيل أنه اقتنى ثلاثة سجائر بثلاثة دراهم. انتصب واقفا إلى جانب حشد كبير من عمال الموقف، يدخن وينتظر مثلهم قدوم شاحنات تُقلهم للعمل في الحقول المجاورة. انتظر إلى منتصف النهار. استهلك السجائر الثلاث. لن يذهب إلى المقهى. فهو بعد قليل سيضطر لشراء وجبة غذاء، وعليه أن يوفر ثمنها.عاد إلى جانب المطعم. صحن صغير من العدس أو (اللوبية)، وقطعة خبز بعشرة دراهم. تحسس القروش في جيبه، وتناول غذاءه في الخيال. ضحكت الحورية في الخيال، ولم تشاركه أكل العدس. أحس بثقل في رأسه. لن يدخن. الميزانية المتبقية لا تسمح بشراء سجائر إضافية. أين سيقضي بقية الوقت. إذا تحرك سيحرق المزيد من السعرات، وسيحتاج في المساء إلى طعام أكثر، ولم يتبق معه إلا درهم واحد، ولن يستطع النوم مع حوريته، وستسخر منه وتطعنه في رجولته.

في المساء شعر بالدوار. اختفت الحورية. أحس بالغثيان. تقيأ على رجلي سرواله حتى كادت تخرج أمعاؤه من حلقه. لم يستطع إنهاء المشهد. اتجه صوب المُخرج. أعاد إليه دراهمه العشرين، وطلب منه أن ينزل إلى الشارع، ويجتاز عتبة الفقر بنفسه.

غادي للهاوية

وهوعائد من المقهى، وضع السماعة في أذنه وشغل الهاتف، فاستمع من غير قصد إلى إحدى أغنيات جيل جيلالة، ظهرت في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، تحمل عنوان (وا أسفا عليك).

عادت به الأغنية سنوات طويلة إلى الوراء. تذكر أستاذا، يظن أنه من الشمال، عُيّن بجامعة القاضي عياض. اكترى شقة بحي جيليز، قريبة من شارع محمد الخامس. ولأنه لا زال عازبا، كان يفضل النزول في الصباح إلى مقهى مجاور للعمارة التي يقطن بها، لتناول الفطور قبل الذهاب إلى العمل.

في أواسط فصل الربيع، بدأ النادل يشنف أسماعه بشريط جديد لمجموعة جيل جيلالة، ويتدخل من حين لآخر لرفع الصوت:

"وا أسفا عليك

غادي الهاوية لا من ياخذ بيدك

وا أسفا عليك

نهار كيلوحك لنهار

ساكت على مافيك

ولا شي نهار على هاد الحالة الغيرة تجيك ".

ولان الأستاذ ينزل إلى المقهى في السابعة صباحا، ولا يحتاج إلا لربع ساعة للوصول إلى الجامعة، فقد كان يستهلك ما يتبقى له من وقت في احتساء فنجان قهوة، وقراءة الجرائد، وتدخين سيجارتين أو ثلاث.

الأغنية قصيرة، وكلما انتهت، وانتقلت الفرقة إلى الأغنية الموالية، تدخل النادل وأعاد الشريط من جديد. وتكررت اللازمة: غادي الهاوية، إلى أن يحين وقت انصراف الأستاذ إلى عمله.

مرت ثلاثة أيام أو أربعة على نفس الحال، فقرر الأستاذ تغيير المقهى، بعد أن تحولت الأغنية إلى كابوس يقض مضجعه كل صباح، وهو لم يعثر على هذا المنصب في بداية الثمانينات إلا بعد أن مر من عين الإبرة، فإذا به يتحول بقدرة النادل إلى هاوية.

لا يدري كيف تحولت معه هذه الذكرى إلى كابوس مثنى، يجمع بين هاوية المقهى وهاوية البيت، بعد أن أسقط التقاعد ضلعه الثالث: هاوية العمل.

قليل من الجنون

حدث ذلك منذ زمن بعيد. بعض الحوالات إذا أخطأت الطريق لا تصل إلى أصحابها إلا بعد سنة أو أكثر. حوالته لم تخطئ الطريق، لأنها لم تخرج أصلا من العاصمة. تعطلت الوزارة في تسوية وضعيته المالية. ظل يعيش على السلف لمدة سنة تقريبا. وهو خارج من العمل أو عائد إليه، بدأت تراوده بعض الأفكار المجنونة. تخيل مرة بأنه اشترى حقيبة (سامسون) أنيقة، وضع فيها دفاتره وكتبه وأوراقه وأقلامه، وارتدى أجمل ثيابه، ووضع شيئا من العطر حول عنقه. غير أنه بدلا من الخروج من المؤسسة والذهاب إلى بيته كالعادة لا يعرف كيف صعد إلى سطح أحد الأقسام في الطابق الأول. وضع الحقيبة فوق السطح، ونزع ملابسه، وجلس فوقها، وحافظ فقط على سرواله الداخلي، ومد رجليه أسفل الحائط المطل على الساحة. تجمع الموظفون والتلاميذ في الفسحة المقابلة للسطح من أسفل يتهامسون ويضحكون. بعض التلميذات غطين عيونهن بأياديهن، وتركن فراغا بين الأصابع، يمكنهن من متابعة المشهد. لم يخبر أحدا لماذا فعل ذلك. بعضهم أشار إليه بيده أن يلعن الشيطان، ويهبط إلى أسفل. البعض قال بأن الرجل طار له (الفريخ)*، وفقد صوابه. والبعض طالب بإلهائه حتى تحضر سيارة الإسعاف. والبعض ألح على رئيس المؤسسة بإخبار السلطة لتبرئة ساحته. والبعض استغرب أن يقوم بهذا النوع من الأفعال، واعتقد بأن امرأة ما سحرته، أو سحرت له، وربما تناول شيئا أفقده صوابه.

أقسم مع نفسه بألا يكلم أحدا، وألا ينزل من السطح حتى يأتي مسئول من الوزارة، ويتفاوض معه حول تسوية أجرته بأسرع وقت ممكن.

التلاميذ والتلميذات والموظفون لم يذهبوا إلى بيوتهم لتناول وجبة الغذاء والعودة إلى عملهم. إذن الجلسة فوق سطح القسم ستحقق هدفا من أهدافها، وتوقف الدراسة بالمؤسسة في الفترة الزوالية. السلطة لم تأت بعد لمعاينة الحادث، وتحديد كيفية مواجهته. إذا توقفت الدراسة في الفترة المسائية، فإن السلطة ستوجه إليه تهما خطيرة مثل عرقلة عمل مؤسسة عمومية. وإذا أرادت فيه (الخدمة) رفعت التهمة إلى مستوى تهديد الأمن العام. وآنذاك سيفتح لها سيف القانون كل النوافذ بأن تقطع رأسه إذا شاءت ذلك.

افترض بأن السلطة لن تتدخل، وتنزله بالقوة، وحل المساء، وانصرف الجميع إلى حال سبيله، وغربت الشمس، وبدأ الجو يبرد. سيرتدي ثيابه من جديد، لكنه لم يخطر بباله بأن يستقدم معه غطاء. كل شيء وقع بمحض الصدفة.

لا يعرف كيف صعد إلى السطح ! ربما الصعود بدأ بفكرة خطرت بباله. والآن لا يعرف كيف سيهبط بدون سلم ! إذا ارتمى من فوق سيتعرض جسمه لكسور في الرجلين، وربما أعضاء أخرى، وسيتم نقله إلى قسم المستعجلات بمدينة مراكش التي تبعد عن مقر عمله بحوالي 320 كلم. قد تتأخر سيارة الإسعاف في الوصول. لا بد من استدعاء المسئولين، وعقد اجتماع، واتخاذ قرار إرسال سيارة الإسعاف. وهذا يحتاج إلى وقت. لا يستطيع إنسان سقط من سطح بعلو عشرة أمتار أو أكثر، أن يتحمل كسوره وجروحه كل هذه المسافة، وكل هذا الوقت حتى في الأساطير.

إذن ما العمل ؟ هل سيبيت فوق السطح بدون غطاء، أم يقفز من فوقه، أم يعدل عن فكرة الصعود إليه من الأساس، ويذهب إلى بيته، وينتظر (جودو)* أن يسوي وضعيته، ويأتي له بحوالته ؟

المعجم :

ـ طار له (الفريخ):مجاز محلي يعني جن وفقد صوابه.

ـ جودو: بطل مسرحية لصامويل بيكيت بعنوان في انتظار جودو.

ليلة القدر

خاطت له عمته (قشابة* بيضاء) رفقة أبنائها ليتزين بها ليلة القدر. حدث ذلك منذ زمن بعيد. صام يومين متتالين، رغم أنه لم يلحق عليه رمضان بعد. من شدة الفرح لم يتناول سوى القليل من طعام الفطور. ترقب على أحر من الجمر آذان العشاء، ليذهب إلى المسجد رفقة أبناء عمته. خرج من المرحاض، وأتم الوضوء وسط المنزل. الليلة أقدس أيام رمضان. سمع أكثر من مرة الكبار يرددون بأن القرآن الكريم جعلها خيرا من ألف شهر. وبأن إقامة الصلاة من العشاء إلى الفجر في الليالي الثلاث الأخيرة من شهر رمضان قد يظهر في إحداها سيدنا (قدر) في جمع من الملائكة، وهي الليلة التي تُفرق فيها الأرزاق. ويا سعد من يتمكن من رؤيتهم ! تُفتح له أبواب الجنة يوم القيامة من غير حساب. قد يراهم في اليقظة أو في الطريق، وقد تكون الرؤية في المسجد أحسن وأغزر أجرا.

مسجد باب دكالة مسجد كبير، يؤدي فيه الصلاة أغلب سكان الحومة من الدروب المجاورة. قيل بأنه بنته عودة الوزكيطية أم المنصور الذهبي كفّارة لما انتهكته من حرمة رمضان، حين دخلت أحد بساتينها وهي في حال وحم، فتناولت خوخا ورمانا وأكلت منهما، ثم ندمت على ذلك، وطلبت المغفرة من الله تعالى. وقامت بصرف أموالها على أعمال البر، ومنها بناء هذا الجامع الذي سيدخله لأول مرة في هذه الليلة المباركة. جذبته رائحة البخور. انتابه إحساس بهيبة المكان، والخوف مما قد يحدث في هذه الليلة المقدسة التي يظهر فيها سيدنا (قدر) وينشط السحرة والشياطين أيضا.

جلس رفقة أبناء عمته في وسط قبة الصلاة. الفضاء لم يمتلئ بعد بالناس.

وضع نعليه على يساره بجانب السارية. سرقته جمالية الأقواس والنقوش والزخرفة على الجبص للحظات. وشرع يتخيل بين ثناياها ظهور الملائكة يتوسطهم (سيدنا قدر) في هيئة شيخ وقور بلحية طويلة وشعر أشيب، يرتدي عمامة وثيابا ناصعة البياض، وينبعث من وجهه نور شديد يحجب ملامحه حسب الأوصاف التي سمعها من الكبار.

اختلط عليه الأمر. سأل نفسه هل (سيدنا قدر) هو جبريل عليه السلام؟ ولو حظي برؤيته وسط الملائكة الآن ماذا سيقول له؟ أو ماذا سيطلب منه؟ وكيف تُفرق الأرزاق؟ وهل يصح له أن يحدثه؟ وبأي لغة؟ وهل يرفع صوته، أم يهمس بما يتمناه؟ كيف نسي أن يسأل الكبار عن هذه التفاصيل الدقيقة؟ ولماذا لم يتبادلوا الحديث عنها أمامه؟

قطعت عليه إقامة الصلاة تساؤلاته. تقدم الإمام وبدأ يقرأ الفاتحة وسورة قصيرة بالجهر. قامته الصغيرة لم تسمح له برؤية ما يجري في الصفوف الأمامية. ركع المصلون خلف الإمام وردد معهم: الله أكبر. رفع الإمام ركوعه، وردد مع الناس خلفه: ربنا ولك الحمد.

أثناء السجود حصل ما لم يكن في الحسبان. دخل جماعة من الأطفال، يسكنون بأحد الدروب القريبة من المسجد، يتزعمهم الأخ الأصغر لأحد فتوات الحي. خطف نعلي أحد المصلين، وفر بين سواري المسجد، وتبعه الرجل يجري من خلفه. توقف رفقة أبناء عمته عن الصلاة، والتفتوا ناحية الأبواب الخلفية. لم يسبق لهم أن رأوا منظرا من هذا القبيل. أخذتهم نوبة من الضحك. حاولوا كتمها، لكن دون جدوى. الطريقة التي يطارد بها الرجل الأطفال الشياطين، فجرت ضحكهم. يراوغونه بين السواري. يجمع الأطراف الأمامية ل(قشابته) بأسنانه، ينزلق، ويسقط أرضا، ثم ينهض، ويتابع الجري حتى يصل إلى باب المسجد. بعد تجاوز الصحن رمى له متزعمهم نعليه، وخرجوا إلى الشارع وتفرقوا في اتجاهات مختلفة حتى لا يستمر في مطاردتهم.

قام أحد المصلين بتعنيف الطفل، وضرب أحد أبناء عمته على مؤخرته برجله، وهو يشتم ويُرغد ويُزبد. لم يشفع لهم صغر سنهم. خرجوا بسرعة من المسجد حتى لا يتعرضوا لمزيد من الأذى.

لم يقم الصلاة حتى الفجر. لم يعد إلى المسجد في اليومين المواليين. ضاعت عليه الفرصة. ربما ستغضب الملائكة لما حدث في المسجد. لن يدخل الجنة رفقة أبناء عمته بأعين مغمضة كما وعده الكبار.

المعجم:

ـ قشابة: لباس تقليدي من ثوب خفيف يشبه الجلباب بلا (قب) ولا أكمام.

بنت الشعب

عندما كبرت فاطمة وانتقلت إلى التعليم الثانوي كان سي عبد السلام يحكي لها بأنها ولدت في نهاية شهر دجنبر من سنة 1979.

في عز الأزمة الاقتصادية والسياسية التي عرفها المغرب، بعد حوالي 8 أشهر من الإضراب البطولي ليومي 10 و11 أبريل في قطاعي الصحة والتعليم، وعلى بعد حوالي سنة ونصف من إضراب 20 جوان 1981 الذي حصدت فيه آلة القمع أرواح مئات المحتجين .

قبل دخولها المدرسة بأشهر قليلة اشتعلت مظاهرات 1984 في أغلب المدن المغربية.

بعد حصولها على شهادة التعليم الابتدائي، اندلعت شرارة الإضراب العام (14 دجنبر 1990) مرة أخرى في البيضاء وفاس ووجدة والناضور. وتحركت آلة القمع من جديد واعتقلت وقتلت المئات من الأرواح البريئة .

عندما انتقلت إلى التعليم الثانوي، كان الإضراب العام في صيف 1996 قويا، وتراجعت خلاله الأجهزة القمعية إلى الخلف، وتركته يمر بسلام .

عقد والدها كباقي المغاربة آمالا كبرى على حكومة الاشتراكي عبد الرحمان اليوسفي. رغم صبر الرجل وحنكته وحكمته، وقلة خروجه الإعلامي، ووزنه لكلماته، كان يدرك مع الناس حجم الإكراهات والعراقيل التي واجهها من الأصدقاء قبل الخصوم .

توفي والدها في نفس السنة التي اجتازت فيها امتحان الباكالوريا. لسوء حظها لم يحالفها النجاح .

بكته كما لم تبك من قبل. كانت تحبه وتعزه أكثر من نفسها. كل سكان الحي يحبونه ويقدرونه لأنه رغم فقره ظل بيته قبلة للجيران. يصلح بينهم في الخصومات، يتدخل في الأزمات ويساعد حسب الإمكانيات. والدتها أم فاطمة، كما يحلو لأبيها مناداتها على طريقة أهل الشرق، واجهت صعوبات كبيرة في تربية الأبناء بعد موته. المعاش وحده غير كاف. اضطرت فاطمة للتخلي عن دراستها والاشتغال في رياض مع إحدى الفرنسيات اللواتي يستثمرن في السياحة. ظلت صورة والدها وذكراه تطاردها وتحرسها كلما حاولت أن تنزلق رجلاها في مستنقع الانحراف بالرغم من الإغراءات الكبيرة التي تعرضت لها. ليلة حمراء أو ثلاث، وتجد نفسها في أوروبا أو الخليج.

عملت نادلة لمدة سنة، تعرضت خلالها لكل أنواع التحرش بدءا من صاحب المحل إلى أفقر زبون في المقهى.

حدث مرة وهي عائدة من العمل إلى البيت في العاشرة ليلا، والجو بارد وممطر، أن اعترض طريقها أحد المنحرفين. نزلت من الباص سارت بضع خطوات. مالت يمينا، لم تشعر حتى أحست بذراع غليظة تلتف حول عنقها مثل أفعى من غابات الأمازون. صرخت بقوة، نصف صرخة فقط. النصف الثاني حبسه سكين في الأعماق، رأته يلمع أمام عينيها. بدأ اللعين يجرها بقوة إلى ركن مظلم ورائحة الخمر الكريهة تلسع من فمه مثل لهيب النار. كادت تقيء في وجهه وقف القدر و رضا الوالدين بجانبها. احميدة ولد الجيران كان قريبا من المكان، خرج لشراء السجائر بالتقسيط. سمع نصف الصرخة. استدار يسارا. جسدان أمامه لا يرى سوى ظهرهما. لم يشعر حتى طار على اليد التي تحمل السكين وضغط عليها. انبعثت رائحة الكحول من فم الشاب. وبمجرد ما أطلق الفتاة محررا يده الثانية حتى باشره بلكمة قوية أفقدته توازنه. فتح قبضته. تراخى وترك السكين تسقط. دفعه احميدة بقوة أمامه. سقط. ثم نهض. وأطلق ساقيه للريح. يجري ويترنح إلى أن اختفى عن أنظارهما.

حاول تهدئة فاطمة، وهي تجهش بالبكاء، وترتعش من شدة الخوف. بعد أن اطمأن عليها سألها إن كانت ترغب في أن يصطحبها إلى البيت. شكرت له ما فعل من أجلها، وطلبت منه أن يسلم على أخته ووالدته .

شكل هذا الحادث الشرارة الأولى التي جعلت فاطمة وحميدة يعيشان قصة حب دامت أربع سنوات. بعدها تقدم لطلب يدها للزواج .

عندما يعود الموسم السياحي لذروته ترجع إلى العمل في (الرياضات). أخوها الذي ولد بعدها بسنتين أنهى دراسته دون أن يحصل على شهادة الباكالوريا. اشتغل بأحد الفنادق بعد أن توسط له أحد أصدقاء والده فخفف عنها بعض الأعباء في مساعدة والدتها .

تزوجت احميدة في عز أزمة الربيع العربي. علقت آمالا كبيرة على حركة 20 فبراير. شاركت في المظاهرات والمسيرات. رفعت الصوت عاليا ضد الفساد. أغرتها شعارات المساواة والحرية والشغل والكرامة

أصيبت بخيبة أمل كبيرة. حدث عكس ما كانت تتمناه رهط جديد دخل الساحة السياسية، ظهر على أنه منظم بشكل جيد، ونسج علاقات خارجية مع دول كانت لها اليد الطولى في تخريب مجتمعات، وسرقة ثرواتها باسم الربيع العربي. رهط شارك في الاحتجاجات، وتوقف في بداية الطريق بعد أن سرق حركة 20 فبراير، ووقع مع رموز الفساد على صفقة من تحت الطاولة، وصعد إلى السلطة.

في البداية زادوا في الماء والكهرباء، وارتفعت أسعار الخضر. تعقدت حياة فاطمة بعد زواجها باحميدة. وتراجعت السياحة، وتقلصت فرص الشغل. يعملان يوما، ويتعرضان للبطالة ثلاثة أيام. ثم يبحثان عن عمل جديد قد لا يدوم أسبوعا أو أسبوعين .

الحياة الزوجية تحتاج إلى استقرار. والاستقرار يحتاج إلى عمل دائم. أداء ثمن الكراء وفواتير الماء والكهرباء والبقال والخضار، بدا لها أشبه بتلك السلسة المجنونة التي تدور في فيلم (الأزمنة الحديثة) لشارلي شابلن .

بعد زواجها بسنة. أَلْغَت حكومة الإخوان المسلمين صندوق المقاصة. حررت البنزين. طارت الأسعار مرة أخرى إلى السماء. السلسلة تدور، والأوضاع تزداد تدهورا، وبطون الفقراء تغرغر من شدة الجوع. المجتمع بكامله تراجع إلى الخلف. هددوا الجميع سلطة وأحزابا ونقابات ومواطنين: إما أن تتركونا نحكم، أو نطلق عليكم دواعشنا. ذئاب شرسة وجائعة، مستعدة لافتراس البشر والحجر. جزء منها أرسلوه إلى العراق وسوريا وليبيا وتونس .

دخلت فاطمة في صراع يومي مع سلسلة الغذاء والكهرباء والماء والكراء والطبيب والدواء. أحيانا تتحول إلى دولة في حالة حرب مع هذه السلسلة الملعونة .

عندما سمعت رئيس الحكومة ينفي وجود الفقر في المغرب، وهو يتحدث في البرلمان

قال لها أحميدة :

ـ كلما ازداد أصحاب اللّحي غنى وثروة، نزداد فقرا. يريدون استعبادنا بعشرين درهما

ردت عليه بحدة :

ـ والله معهم (لا تْفَكّينا)*. بيننا وبينهم الشارع.

المعجم:

ـ (لاتفاكينا): قريبة من معنى سنشنق عليهم حتى نأخذ حقنا.

الانتخابات

اتصل ابن خالتها رحمة الذي يسكن بدرب الساقية، واقترح عليها الترشح في الانتخابات الجماعية باسم أحد الاحزاب التي ينعتها المغاربة بأحزاب (الكوكوت مينوت). سألته هل أصبح مشرفا على الترشيحات، ولماذا وقع عليها الاختيار دون غيرها من رجال ونساء الحي؟

قال لها:

ـ سأبدأ من الآخر. أنت أ بنت خالتي معروفة عند الجميع بأنك امرأة بعشرة رجال. أخلاق وجرأة وقدرة على المواجهة، وسلاسة في التواصل. لو كان معك شيء من المال أو الجاه لطلبوا منك الترشح للبرلمان، وربما الوزارة. الناس اليوم تخسر الملايين في الحملات الانتخابية ولا تنجح. أنت يا فاطمة تطلع عيك الانتخابات بالمجان. لن تخسري شيئا.

كلام جميل لم تسمع مثله منذ مدة، دغدغ مشاعرها. عندما لاحظ ابن خالتها رحمة انفراج أساريرها، واصل الحديث:

ـ القيادي في الحزب عندنا، كان في اجتماع مع ناس كبار في السلطة. اقترحوا عليه أن يقنعك بالترشح في المركز الثاني للائحة الجماعية للحزب بهذه الدائرة. والله لقد فضلوك كما سمعت منه على عشرات رجال الأعمال مستعدين لتقديم الملايين ليأخذوا مكانك:

تابعت الاستماع إليه، وكأن مخدرا يسري في جسدها. لا تعلم كيف أصبحت على هذه الدرجة من الأهمية. لم تبد رأيها في العرض المقدم لها. طلبت منه أن يمنحها مهلة للتفكير.

في المساء عندما عاد احْميدة إلى البيت، فاتحته في الموضوع. وأخبرته بان ولد رحمة أسرّ لها بان أحد القياديين الحزبيين بالمدينة أختارها للترشح معهم للانتخابات الجماعية، وحكت له بالتفصيل ما دار بينهما.

تذكر احميدة عندما فكر صديقه العربي تقديم ترشيحه في الانتخابات الجماعية الأخيرة لأحد الأحزاب اليسارية. استخرجوا كل الأسلحة والحيل التي يستعملونها في حروبهم الداخلية لإقناعه بوضع اسمه في أسفل اللائحة. قالوا له أنت جديد، لست ابن الحزب، يلزمك شيء من التدرج في المسؤولية، أنت في حاجة إلى وقت لتتحول من ذبابة إلى نحلة، إكراهات الديمقراطية الداخلية. وأخيرا خرجوا له نيشان :

ـ الصف عندنا طويل، قد لا يصل دورك حتى تشيخ، قوانين الحزب تقتضي احترام قواعد الديمقراطية الداخلية، القيادات عندنا ترشح مناضلين ومسئولين تصفهم بالنْحيلات*، وهي وحدها تعرف متى أصبحوا نْحيلات.

بعضهم يقول الدوائر التي لا يتواجدون فيها بقوة، يكتفون بحملة تستهدف التعريف بالحزب وبرنامجه. أما الدوائر التي يكون فيها حد أدنى من التواجد فالترشح فيها يحتاج إلى حرب داحس والغبراء.

ايقظته فاطمة من سهوه، وسألته أين غاب؟ فرد عليها لاشيء. ثم أضاف:

ـ آه يا فاطمة لو قبلت هذا العرض. أقسم أنك ستنجحين بفارق كبير. وأعطيك شهرين أو ثلاثة حتى تدخلي إلى المجلس، وتصبحين قيادية في هذا الحزب. خمس سنوات في المجلس، أي جهة قادت المجلس ستدوخ معك. سيحاولون إسكاتك كما فعلوا مع بعض المشاغبين قبلك. وسيطلب منك القياديون في الحزب تخفيض السقف، ويفتحون لك جنة الريع. في ظرف ثلاث سنوات سنركب أفخر السيارات، ونتناول طعامنا يوم السبت في أغلى مطاعم المدينة وبالمجان، ونرحل عن حي الزفت هذا، ونسكن في فيلا فسيحة. سيأتي الشتاء

ولن أصعد إلى سقف البيت لإصلاحه قصد إيقاف سيل القطرات فوق فراش نومنا. لأول مرة سننام في الشتاء نوم العشاق يا فاطمة، وكأننا في شهر العسل.

نهرته بطريقتها الخاصة، وأعادته إلى حيث هما:

ـ العن الشيطان آ احميدة، لم نضع بعد في الطاجين ما يحرق. أنت لا تعرف هؤلاء الناس. سبق لي العمل عند مثلهم قبل زواجي منك. ماذا أقول لك؟ من خارج تحسدهم، وتتمنى أن تكون مثلهم ، أو قريبا مما هم فيه من رغد العيش. من الداخل يشبهون الرمانة (الخامجة)*. لا قيم، لا أخلاق، لا كرامة. قليل، القليل منهم ولد الناس، خليني ساكتة أحسن.

ـ الزلط آ فاطمة يدوخ من لا يدوخ.

ـ أنظر أ وَلْدْ الناس. كنت أجلس بجانب الوالد رحمه الله في ليالي الصيف، وأنا طفلة صغيرة، واستمع إليه بانتباه، وهو يحكي لعمي أحمد بالتفاصيل المملة عن الأحزاب والنقابات في المغرب. الأحزاب التي صنعتها الإدارة، والأحزاب التي انبثقت من الشعب. الأحزاب التي دعت إلى الانتفاضات والإضرابات وقادتها، ودفع مسئولوها الثمن، وتعرضوا للاعتقالات والسجون وذاقوا مرارة التعذيب والاختطاف. تعرف سي العربي اللي ساكن في درب النخلة؟

ـ نعم، من لا يعرفه؟ من خيرة سكان الحومة رغم فقره.

ثم أردفت:

ـ لو سمعت ما حكى والدي عما تعرض له سي العربي من أصناف التعذيب التي لا تخطر على بال إنس أو جن، لوقف الشعر في رأسك، قبل أن تغلق نوافذ البيت، وتضع على فمي (لصقة).

ليتهرب من قصة سي العربي التي سمع عنها من جهات أخرى قال بتذمر:

ـ الوقت تغيرت كثيرا يا فاطمة. الفقر والجوع والبطالة والأمراض قهروا الناس.

ـ أعرف! البلاد في أزمة! الوقت صعب! حتى هذه الأحزاب التي تكلم عنها والدي تعيش اليوم مثلنا في أزمة!

بعد أسبوع عاد ولد رحمة، سألها إن كانت قد حسمت قرارها، فأجابته برزانة:

ـ اسمع آ وَلْد خالتي، أنت رجل محتاج، مرة تجد الشغل، ومرة لا تجده. تأتي الانتخابات تعمل فيها مثل الكثير من الناس. قل للقيادي الذي تكلمت لي عنه: فاطمة ترفض هذه اللعبة.

أغلقت الباب، وسألها حْميدة لماذا لا تأخذ مهلة إضافية للتفكير؟

ردت عليه بتأني، وكأنها تحسب الكلمات:

ـ هذه بئر مليئة بالأفاعي، إذا أغرقت نفسي فيها لن أخرج منها. في البداية سيطلبون منك أن تكذب على الفقراء مثلك، وبعد ذلك سيدربونك على خداعهم وسرقتهم. إنهم يملكون ذكاء خارقا يفوق ذكاء الشياطين، لو وظفوا نصفه في التخطيط لتنمية البلد، لأصبح المغرب أحسن من اسبانيا أو البرتغال.

ـ عندما تتحدثين في السياسة يا فاطمة أشعر بالخوف.

ـ أنظر، يا احْميدة في كل مرة أفكر في السياسة، تقف علي روح والدي رحمه الله، وأرواح الناس الذين كان يحكي عنهم، فتنقشع الغيوم، وتظهر الطريق واضحة أمامي.

لا أعرف كيف أشرح هذه الأشياء. بيني وبين الكتب زمن بعيد. أكيد هناك أناس كثيرون يقع معهم مثل ما يحدث لي. بعض المثقفين عندنا يعرفون كيف يفسرون ذلك، لكن جيناتهم فيها كثير من الجبن والخيانة. أنا أصبحت مسكونة بأرواح هؤلاء الأشراف. حلمهم بمغرب جديد نعيش فيه جميعا بحرية وكرامة سكن

جيناتي منذ الصغر. أحيانا يبتعد الحلم، ويتحول إلى سراب، ثم فجأة تقف علي روح والدي الطاهرة، فيتوهج الحلم من جديد.

المعجم:

ـ النحيلات: جمع نحلة بالعامية.

ـ الخامجة: الفاسدة.

علب الاسمنت

اشترى احميدة وفاطمة شقة في الطابق الثالث بالتقسيط لا تتعدى مساحتها أربعة وخمسين مترا مربعا. مطبخ وحمام وثلاث غرف صغيرة مثل أقفاص الطيور. في البداية غمرت فاطمة فرحة كبيرة عندما استقلت عن حماتها. رغم الضجيج، وطول السلالم، وضيق الفضاء الداخلي، فقد أصبحت سيدة بيتها.

أحست فيما بعد بأنها فقدت جزءا من ذاتها. أصدقاء والدها وهي تتقدم للسلام عليهم في الدرب، أو عندما تدخل بيوتهم. أبناء وبنات الجيران، وصديقات أمها وهن يتبادلن معها التحية من باب المنزل، ويسألن عن أحوالها.

تسكن بجوارها أسرة من زوجين موظفين، أنجبا طفلة لا زالت في شهرها الرابع. رمت بهما الأزمة إلى السكن بشكل مؤقت في علب الاسمنت هذه.

في الحد الأقصى لا تستهلك أكثر من سبعين درهما من الماء والكهرباء. الساندیك يأكل بالباطل مئة درهم في الشهر دون مراعاة ظروف الناس. قسيمة السكن تلتهم سبعمئة وخمسين درهم شهريا. البقال والمخبزة يأخذان خمسمائة درهم، دراجة حميدة ثلاثمائة درهم بنزين مع احتساب التامين، وعملية استبدال قطع الغيار المتهالكة. الخضّار والجزّار وبائع السمك حوالي ستمائة درهم إذا لم يزرهم ضيوف. أضف إلى ذلك الحمام واللباس والتطبيب والترفيه والتنقل. سلسلة تدور بشكل مجنون مثل حمار الطاحونة، ولا يوقفها إلا الموت. دخل حميدة اليومي لا يتجاوز مائة درهم، وفي فترات الكساد يهبط بالثلث، ويتوقف نهائيا عندما يتعرض للبطالة التي قد تمتد أسبوعا أو أكثر.

بعد الزواج عادت للعمل في الرياض مقابل مائة درهم، وما تجمعه من بقشيش في فترات الذروة السياحية. تساعد حميدة على مواجهة سلسلة الموت.

عندما تركد حركة السياحة في فصل الصيف الذي يطول في مراكش، وقد يمتد إلى نصف سنة، تدعوها ليلى صديقتها التي تُزود الرياض بالحلوى إلى مساعدتها خاصة عندما تكثر لديها طلبات الأفراح والأعراس. وفي رمضان تساعدها في تهييئ الحلوى الشباكية و(البريوات) و(السفوف)، أو تجلس في شقتها تقلب عينيها، وتلعن الظروف التي دفعتها لمغادرة المدرسة، وحرمتها من الحصول على شهادة عليا قد تحسن من وضعها الاجتماعي، وتمكنها من الحصول على عمل وأجر قارّين.

جارتها المعلمة تقبل رأسها من أجل أن تترك لها طفلها حتى تعود من العمل عندما يتأخر بها الوقت، ولا تستطيع المرور على بيت والدتها أو أخت زوجها.

في نهاية الشهر لا ترضى أن تقول للبقال بأن احميدة لم يعمل هذا الأسبوع. في نهاية كل شهر تطاردها الكوابيس، وتشعر بان شيئا ما لا تعرف ما هو يجرح كرامتها. تتساءل مع نفسها ما الفرق بينها وبينهم؟ هي تعيش في علبة من الاسمنت، وهم ينعمون في الفيلات والقصور، وسط جنات من الحدائق يزينها العشب وأزهار الكاميليا والياسمين وأشجار الليمون والمزاح والمسابح. يربحون أموالا لا تُصدق حتى في الخيال. يسجلون أبناءهم في مدارس البعثات، وعندما يتخرجون يفصلون لهم أعلى المناصب. ويشترون آخر موديل من السيارات، ويقضون عطلهم الصيفية في أوروبا، ويتناولون وجباتهم في أغلى المطاعم، وينامون في أفخم الفنادق.

عشقت مرة أن تذوق وجبة من طعام (الماكدونالد)، وكادت أن تستضيف حميدة للذهاب معها لولا أن وقف عليها شبح فاتورة الماء والكهرباء ووصْل الساندِيك، وسرق منها هذا الفرح البسيط، فأعادها إلى جحيم علب الاسمنت التي تلتف حول عنقها مثل حبل المشنقة.

عندما تشتد الحرارة تصبح كمن بها مس تلتفت وتتكلم مع نفسها:

ـ لا أحد يستطيع ان يدرك حجم الجحيم الذي نعيش فيه.

تعرف أن الأثرياء الذين يحكمون البلد لا يستطيعون ترك عطلتهم والتخلي عن الشواطئ والفنادق والمطاعم والمسابح والسهرات الحمراء والهواء المكيف ليوم واحد، وينزلوا ضيوفا عند سكان علب الاسمنت، لمعاينة الجحيم الذي يتباهون بوضعهم فيه، ويصفقون له بمناسبة وبدونها!

درجة الحرارة تتجاوز هذه الأيام 48. خففت لباسها. استبدلت قميص نومها بسروال خفيف مزقت رجليه إلى ما فوق الركبتين. قطعت أكمام القميص القصير حتى كشفت عن شريط حمالة النهدين، ورغم ذلك لا زالت تتصبب عرقا. اشترت مروحة كهربائية ب 150 درهما بالسلف. روحها تكاد تزهق من جسدها، لا تستطيع الوقوف في المطبخ، ولا الجلوس في الصالون، وكأن الشمس تطاردها داخل الشقة من الثامنة صباحا الى الثانية بعد منتصف الليل.

في منتصف النهار تتحول الشقة إلى مقلاة، وتتحول فاطمة إلى سمكة تتقلى في زيتها.

في المساء تخرج مع احميدة إلى حديقة قريبة من الحي هربا من نار الاسمنت، تفترش العشب، وتتوسد فخده، وتتأمل النجوم في السماء، وتناوله كوب ماء بارد، وتستمع لنعيمة سميح وهي تشدو:

(ياك اجرحي جريت وجاريت

حتى شي ما عزيتو فيك

واسيت وعالجت وداويت

وترجيت الله يشافيك).

تتخيل نفسها ترقص مع احميدة تحت أشجار النخيل، ونور القمر يتسرب بين جريدها، في شاطئ خال من البشر.

عندما يشتعل الضوء الأحمر في رأس فاطمة، ويركبها الجنون الطبقي، يدعو احميدة ربه أن تمر هذه اللحظات بسلام.

يرتبك السارد. تصعد فاطمة إلى الخشبة. يركبها الجنون. لا تريد ان يتكلم أحد باسمها. تصرخ بصوت عال وهي تتكلم مع نفسها:

ـ من يهدد أمن الوطن؟

ـ من يتناول عشاءه في أفخر المطاعم المكيفة في شواطئ شلوبينية وأستورياس وبويرتو بانوس باسبانيا؟

ـ من يهرب الأموال إلى سويسرا وباناما وتركيا؟

ـ من يختلف حول الرجل التي ندخل بها الى المسجد هل هي الرجل اليمنى أم الرجل اليسرى؟

نعرف الله أحسن منكم، ونتضرع إليه في صلاتنا بعمق صوفي، ولا نحتاج إلى وساطتكم. مشاكلنا بسيطة مثلنا، ونريد لها حلولا ملموسة.

سقطت دمعة من عينها. مر أمامها شريط من الشعارات على شكل لافتات:

ـ عمل قار لنا ولأبنائنا.

ـ أسعار معقولة تناسب أجورنا.

ـ سكن لائق نتنفس فيه بحرية.

ـ مدرسة عمومية تقدم حدا أدنى من الجودة.

ـ تغطية صحية حقيقية.

عادت إليها النوبة. كادت تسقط قبل أن تتجه إلى الحمام، وتسكب على رأسها المشتعل دلو ماء بارد، ثم تضيف:

ـ لسنا قرودا أو ثعابين قابلة للترويض. كلكم يعني كلكم. بيننا وبينكم الشارع، اليوم أو غدا.

شوارع بلا أرصفة

خرجت فاطمة بالأمس لتقتني بعض الحاجيات للبيت. في كل مرة تحاول قطع الشارع ترعبها السرعة التي يسوق بها بعض المتهورين سياراتهم الفارهة.

تسير بضع خطوات على الرصيف. المقاهي تنبت كالفطر. كل يوم تُفتح مقهى جديدة. كراسي المقاهي وطاولاتها ترغمها على النزول أحيانا للمشي في المكان المخصص للسيارات والدراجات.

رجال من مختلف الأعمار يشاركون أرباب المقاهي في احتلال الرصيف ويجلسون ساعات طوال يتبادلون أحاديث قد تكون في أغلبها فارغة. بعضهم يقيس طول المرأة التي تمر من أمامه بالسنتمتر وعينه لا تكاد تزيغ عن مؤخرتها.

تمر دراجة نارية بقربها. المحرك ينفث صداعه بقوة خارقة. تقفز من مكانها وتفقد توازنها حتى تكاد تسقط على الأرض.

ـ الله يلعن والديك أَ وَلْد الحرام!

لا تصله الشتيمة. أصحاب هذا النوع من الدراجات لا يسمعون.

تمنت لو كان بيدها قطعة حجر لرشقته ما دامت الشرطة عاجزة عن محاربة هذه الظاهرة التي إذا لم تصب المواطن فهي ترعبه.

أرباب بعض المقاهي سيجوا الأرصفة واستولوا عليها. البعض وضع مزهريات كبيرة متراصة الى جانب بعضها البعض وأخفى الرصيف عن الأنظار.

والبعض قام بإعادة بناء الرصيف، فأزال الأرضية التي خصصتها البلدية له، ووضع مكانها الزليج، ومنع المارة من اجتيازه، بدعوى انه أصبح جزءا من المقهى.

والغريب إن الإصلاحات التي يقوم بها أرباب المقاهي للاستيلاء على الأرصفة لا تحصل إلا يومي السبت والأحد، وكأن السلطة الوصية غير مسئولة عن الخروقات التي تحصل في عطلة نهاية الأسبوع.

تخرج السلطة عن صمتها مرة في سنوات، فتقوم بدوريات لتحرير الملك العمومي في الصباح، لتعود الحالة إلى ما كانت عليه في المساء.

عندما عادت إلى البيت شكت لحميدة ما يجري في الشارع:

ـ ما يحدث لنا فظيع. يَكْتَرون أو يبيعون أو يستولون على الأرصفة التي قالوا بأنها مخصصة لنا نحن الذين نمشي على أرجلنا.

سألها حميدة باستغراب:

ـ من هم؟

أجابته بنبرة يخيم عليها الحزن:

ـ والله لم يعد أحد يعرف من هم! هل هم أرباب المقاهي أم أرباب السلطة أم أرباب الشأن العام؟

رد عليها احميدة بأن زعماء الأحزاب و الوزراء والبرلمانيين ورؤساء الجهات والجمعيات الكبيرة، والكبير هو الله، أغلبهم يستثمر في المقاهي بشكل أو بآخر، فهي على الأقل تشغل الناس، وتأكل وقتهم الفارغ، وكلما أطل احدهم في التلفزيون إلا وذكر بان حزبه جاء إلى السلطة، أو خرج الى المعارضة لمحاربة الفساد والرشوة والدفاع عن كرامة المواطن!

أجابته وهي تتحسر على خراب البلد:

مظاهر الفساد والرشوة الصغيرة والكبيرة كثيرة، وبادية للعيان، والغريب أنهم كلما انتقدها السياسيون، ازدادت استفحالا.

العرس

بدأت الاستعدادات على قدم وساق لعرس نوال الأخت الصغرى لاحميدة. لم يتبق سوى أسبوع واحد. بالأمس أطلقوا (العَرّاضات).

الوضع المادي للأسرة وللعريسين لا يسمح بكراء قاعة للأفراح، أو منح إطعام الضيوف لممون حفلات ، كما هو الشأن بالنسبة للأسر الميسورة.

فاطمة تكفلت بمهة مرافقة العروسة مع أمها لاختيار وتحديد ثمن الحلوى والبسطيلة والنكافة* والجوق. الأسعار جد مرتفعة، وعليهم دفع العربون قبل ثلاثة أشهر. في بداية الأسبوع الأخير بدأن في تفقد أين وصلت الاستعدادات.

احميدة ووالده تكفلا بإعادة صباغة الدار، وفرش وسطها، وتخصيص غرفتين لتناول الطعام، وتجهيزهما بالفراش والموائد والكراسي ، إحداهما للنساء في الأسفل. وسط الدار سيخصص للنساء، والغرفة المطلة عليه للعروس، وغرفة مجاورة للجوق. أما الرجال فسيصعدون إلى الصالة، والأطفال يمكنهم متابعة العرس من الشرفة المطلة على وسط المنزل، والسطح سيخصص للطبخ.

اتفقت فاطمة مع احميدة على تقديم هدية لأخته، وهي عبارة عن دملج من الفضة كانت قد اشترته قبل الزواج، ومجموعة من الصحون المستوردة قدمتهم لها كهدية النصرانية التي تعمل معها في الرياض.

في النصف الثاني من يوم السبت عادت فاطمة رفقة العروس من صالون التجميل. وقد قصت شعرها، واستعملت شيئا من الماكياج. لبست القفطان والتكشيطة والحزام والعقد والدملج. أنقدتها ليلى صديقتها من كراء ملابس أقل جودة وجمالية. أحست بان شكلها وهي تنظر في المرآة سيجعل منها نجمة العرس. تذكرت ليلة زفافها حين انتابها مزيج من الفرح والحزن، وهي تخرج

من البيت الذي قضت فيه حياتها منذ ولادتها. شعرت بحنين غريب اتجاه أمها وتمنت لو ارتمت في حضنها، كما كانت تفعل وهي طفلة.

بدأ الضيوف يتوافدون على المنزل، والشمس تميل إلى الغروب، والحرارة تنخفض بشكل تدريجي.

في ظرف وجيز تحول وسط المنزل إلى ما يشبه حديقة زهور تتدفق بألوان قوية، وأخرى باردة، أو متداخلة مع بعضها البعض. وجوه رغم انبساطها، لم يستطع الماكياج والفساتين الجميلة إخفاء آثار الألم الذي تسبب فيه وضعها الاقتصادي المأزوم، لكنها جاءت لتسرق لحظة فرح من مخالب هذا الزمن الموحش.

بعد ساعة علت أصوات ونغمات الطبالة مؤذنة بقدوم اهل العريس. في البداية تجند الفتيان والفتيات للرقص على ايقاع الطقيطقات، والنساء يتمايلن برؤوسهن وأجسادهن مع الموسيقى.

بعد صلاة العشاء بدأ الرجال يتوافدون على البيت. وجدوا في استقبالهم الأب وابنه البكر احميدة.

يخرج احميدة بين الحين والآخر لتناول كاس من الخمر مع أصدقائه من أبناء الدرب المتجمعين بالقرب من المنزل، وبعضهم يجلس فوق الدراجات التي تركها الضيوف في الخارج، أو على كراسي قصيرة من الدوم. اليوم سيحتفل بعرس أخته الصغرى على طريقته الخاصة. مثل هذه اللحظات لا تتكرر إلا مرة واحدة في الحياة.

فجأة قدمت العيساوية. امرأة في الاربعينات ترتدي سروال جينز وقميصا أبيض. يرافقها شاب مفتول العضلات يحمل حقيبتها. يبدو انه حارسها الخاص أوصلها الى البيت وعاد أدراجه. سلمت على احميدة، ورافقها إلى الغرفة التي يوجد بها الجوق. أشعلت سيجارة مالبورو. غيرت ملابسها وتناولت كأسين من (البلاك اند وايت)*. ثم خرجت الى المنصة الصغيرة المخصصة للجوق. تمَلّت قليلا في

وجه الحاضرات وهمست في أذن عازف الكمان (الحامونية ـ تزوج ما قالها لي). بعد دقائق صدح صوت رخيم قادم من أعماق ليالي الحصاد في الأرياف، يوقظ شيئا ما غامضا في الضيوف:

"أنا ما نويت فراقه هو اللي سخا بيا

تزوج ما قالها لي حالفة حتى نبالي به

أنا اللي عطيته شعري حتى خبلو لي

تزوج ما قالها لي حالفة حتى نبالي به

أنا اللي عطيته العلقم حتى شربو ليا

تزوج ما قالها لي حالفة حتى نبالي به

أنا اللي عطيتو ظهري حتى هرسو لي

تزوج ما قالها لي حالفة حتى نبالي به

أنا اللي عطيتو قلبي حتى جرحو لي

تزوج ما قالها لي حالفة حتى نبالي به"

أغلب النساء وقفن يرقصن. والبعض منهن يتابع الإيقاع برأسه ويديه. جرّت فاطمة إحدى صديقاتها إلى وسط المجمع، ورقصت رفقتها بفنية عالية اثارت انتباه الجميع، بما فيهم احميدة الذي اقتحم الحلبة وغرم على زوجته 50 درهما. ورقصا معا والتصفيقات تتعالى من كل جانب.

ذهبت المطربة إلى الغرفة، ودخنت سيجارة، وتناولت كأسين، وعادت نشيطة بعد استراحة خفيفة. في الوصلة الثانية أدت الاغنية الشعبية المشهورة (مول الكوتشي) وصدحت بصوت يتدفق حنانا كأنه قادم من أبعد نقطة في جبال الاطلس:

(ومول لكوتشي..

وجمع كل شي..

بضاض يرشي*

محال إي ريبو دوك لحيوط

إي بان المربوط*

آمولاي براهيم..

وطير لجبال..

سبعة رجال).

تفاعل والد احميدة مع الصوت القادم من وسط المنزل، وخرج من الصالة ورمى بورقة نقدية من فئة 100 درهم، وأومأ لاحميدة بان يعلقها للمطربة.

(حالفة بِحْلوفي..

حتى نعذبو كيما عذبني

وحالفة بحلوفي ..

حتى نعذبو بعينيك تشوفي

وامول لكوتشي..

وجمع كل شي..

بضاض يرشي)

غرمت عليها فاطمة 50 درهما، وهي تلعن في نفسها فاتورة الماء والكهرباء. عندما تردد الشيخة (المطربة) اسمك أثناء الغناء شيء ما غامض في الجينات يجذبك لتغرم عليها، ولو كان معك أكثر لغرمت أكثر.

ظلت فاطمة واقفة ترقص من حين لآخر، وتُرقص معها في كل مرة إحدى صديقاتها.

وتابعت المغنية وفاطمة ترقص بجانبها.

(أعطيوني صباطي بغيت نمشي*..

بضاض يرشي

وامول كوتشي .

وجمع كلشي..

بضاض يرشي..)

نزل والد نوال ووالد العريس والعدول، ودخلوا الغرفة التي تجلس فيها العروس. كتبوا العقد. التُقطت صور للذكرى. زغردت ام احميدة رفقة (النكافات)*.

بعد منتصف الليل بدؤوا في تقديم العشاء للضيوف. ينتقين النساء ليتناوبن على الجلوس عشرة إلى كل طاولة. في البداية وُضع طابق البسطيلة بين كؤوس المشروبات الغازية. يتذوقنه ويتبادلن الحديث. وقبل الانتهاء من هذه الوجبة أخرجت بعضهن كيسا بلاستيكيا صغيرا، ووضعن فيه قطعة إلى جانب الحلوى لأبنائهم الذين لم يحضروا معهن.

في الشوط الثاني قدموا لهن صحنا كبيرا، يتضمن أربع طيور من الدجاج المحمر، وبعده الفواكه.

مع الانتهاء من تناول العشاء بدا الجزء الثاني من الحفلة. خرج العريسان وجلسا في المكان المخصص لهما في وسط المنزل. ألبس كل منهما الآخر خاتم الزواج وتبادلا شرب الحليب والقبل بخجل. تم رفعهما في العمارية تحت إيقاع الطقيطقات. وبعد التقاط صور لهما، جاء دور الهدية. عرضت النكافة ما تضمنته الأطباق التي جاء بها أهل العريس. وارتفعت الزغاريد بين الحين

والآخر. واستأنف الجوق نشاطه. غرم العريس ورقة من فئة 100 درهم. رقصت فاطمة والعرق يتصبب من جبينها.

بدأ الضيوف من الرجال، وبعض النسوة في الانصراف.

استمر الغناء والرقص الى طلوع الشمس. تناول من بقي وجبة الفطور. القهوة بالحليب والحريرة. خرج العروسان، وركبا سيارة أحد الضيوف وسط الزغاريد والأهازيج، واتجه بهما صوب بيتهما في حي الفرح. سقطت دمعة من عين نوال، وهي تقبل والدتها وتبتسم.

لم يصدق احميدة بأن فاطمة رقصت بكل هذا الفرح. غمره سرور عميق، وهو يرى زوجته تتخلص من همومها اليومية مع سلسلة الموت (الخبز والماء والكهرباء والبقال والجزار وقسيمة الشقة).

يشعر دائما بأنه محظوظ، ومرضي الوالدين لأن امرأة مثل فاطمة أصبحت زوجته. شيء ما غامض امتزج بنشوة الخمر، يشبه الحب دفعه إلى الاقتراب منها، ثم وشوش في أذنها:

ـ ماذا أفعل لكي تحبني امرأة جميلة مثلك؟

قالت له:

ـ ألست زوجتك ؟

قال: ولو.

قالت وهي تبتسم:

ـ لا شيء سوى أن تكون رجلا.

نزل جوابها كقطعة ثلج على قلبه. وماذا يملك غير هذه الرجولة التي ورثها عن والده وهو حي؟

المعجم:

الطقيطقات : أهازيج شعبية

ـ النكافة: ثلاث نقط فوق الكاف سيدة تتكفل بلباس العروس وتغييره مرتين أو ثلاث في العرس.

ـ البلاك أند وايت: نوع من الويسكي.

ـ الكوتشي: الحنطور

ـ بضاض: الحب بالأمازيغية.

ـ يرشي: تقادم الشيء وسهولة تفككه.

ـ الحيوط ايريبو: الجدران تتحطم.

ـ صباطي: حذائي.

فاطمة تفتح صفحة على الفايس بوك

فتح احْميدة لزوجته فاطمة صفحة على الفايس بوك. واستغرق شهرا في تعليمها كيف تدخل وتخرج وتكتب. في البداية وجدت صعوبة في الاعتماد على نفسها. كانت إذا اعترضتها مشكلة أغلقت الهاتف، وانتظرت احميدة حتى يعود إلى البيت.

سألها حميدة أن كانت ترغب في نشر صورتها، وكتابة اسمها. اكتفت في البداية بكتابة اسمها الحقيقي، لأنها لا تستطيع استعمال اسم مستعار، وتقمص شخصية غير شخصيتها.

طلبت منه البحث لها عن صورة لشجرة الأركان (ثلاث نقط فوق الكاف)، ووضعها كغلاف للصفحة. أما الصورة الشخصية فتمنت وضع صورة (آرطاميس) إلهة الصيد، وحامية صغار البشر والحيوانات. مرت سنين كثيرة، لم تنس درس الفلسفة. كانت مولعة بالحكمة والميتولوجيا. تنتظر بفارغ الصبر حصة الفلسفة. الحصة التي تمنت دائما ألا تنتهي، رغم تذمر زميلاتها وزملائها في القسم من هذه المادة التي تبدو لهم مثل الطلاسم. تعتقد أحيانا، أنها ورثت شيئا من الشك، وربط الظواهر بعللها، وحدة اللسان والقدرة على المواجهة عن هذه المادة التي كانت تحلم بدراستها في الجامعة، لو وُفّقت في الحصول على الباكالوريا.

بدأت تكتشف بشكل تدريجي طبيعة العالم الافتراضي في وسائل التواصل الاجتماعي خاصة الفايس بوك والميسنجر.

توصلت بعدة رسائل تحرش في الخاص من طرف أشخاص لا تعرفهم.

سلكت نفس الأسلوب الذي تعودت عليه في الواقع، وهو الرد على ذلك بعدم الاهتمام، فكظمت غيظها احتراما لكرامتها. في الشارع إذا تجاوز احدهم حده، يمكن أن تلقنه درسا لن ينساه. في العالم الافتراضي الأمر مختلف، فهي لا ترى ولا تعرف طبيعة الكلب الذي ينبح خلف شاشة الهاتف.

صفحات صديقاتها في الحي لا تهتم إلا بالطبخ والحلوى والخياطة والجرائم وأخبار بعض الفنانين والفنانات والأدعية الدينية وبطاقات صباح الخير وجمعة مباركة والصلاة على النبي وصور الكعبة والمسجد الحرام.

أحيانا تسأل حميدة كيف يجرؤ الناس على شتم الوزراء وكبار المسئولين في الفايس بوك؟

يجيبها حميدة ببرودة كالواثق مما يقول:

ـ ربما لأن الناس غير راضين على تدبير هؤلاء المسئولين للقطاع الذي يشرفون عليه. إذن لماذا لا يشتمونهم على الأقل في الفايس بوك.

أضاف حميدة وهو يرتدي جلبابه:

ـ إنهم يثيرون الناس بتصريحاتهم غير المحسوبة، وعندما يتعرضون لنقد قوي يصل حد الشتم، يتظاهرون بالتسامح، حتى لا يقال عنهم بأنهم أعداء لحرية التعبير.

ناولته كيسا بلاستيكيا فارغا، ولمحت صورة والدها على الحائط المقابل دون أن تتوقف عندها ثم تابعت:

ـ رغم أني لا أرتاح لتصريحات هؤلاء المسئولين، فإنني أشفق عليهم. عندما كانوا نوابا في المعارضة فرعوا رأسنا بالتباكي على فقرنا وغرغرة أمعاء أراملنا وأيتامنا ومطلقاتنا من شدة الجوع، وعندما أصبحوا وزراء زادوا في

الأسعار، وأغرقوا البلد في الديون، وأخرجوا عيونهم فينا، ونفوا وجود الفقر أصلا.

أغلب الساسة في البلد بهدلوا المناصب الذي يشغلونها، لأنهم ليسوا أهلا لها، لذلك فقد الناس الثقة في المؤسسات.

إنهم يلعبون بالنار يا حميدة. باسم الوطنية يسرقون خبزنا، ويخربون المدارس والمستشفيات، ويفرشون البلد للفقر والجهل والأمراض والدواعش.

الطريق الثالث

قررت فاطمة عدم زيارة الطبيب. تعب معها احميدة وكانت في كل مرة تماطله وترجئ ذلك إلى الأسبوع المقبل. الآن أصبحت في وسط شهرها الرابع. انتفاخ بطنها أصبح ظاهرا للعيان. جاءها الوحم عاديا وبسيطا. من حسن حظ احميدة لم تتشهّ لبن العصفور، أو لسان الطير، أو الكافيار الأصفر، أو غصنا من شجر شوكولاطة (الفوج هوك). كل ما في الامر انها لم تعد تحتمل طبخ الطعام، وإذا فعلت تشعر بالغثيان، وتفقد الشهية في تناوله.

عاد متأخرا من العمل. سلم عليها وذهب إلى المطبخ. مسح المائدة ثم خرج وعاد. فاجأها بوضع (بلاتو) تزينه علبة وجبة (الماكدولاند)، وكأس الكوكاكولا باللون الأسود والأبيض والأحمر. لم تصدق عينيها، قبّلته بشدة حتى كادت عينها تدمع من الفرح. تذكرت أيام زواجهما الأولى. كم حلمت من قبل بتناول هذه الوجبة رفقته في مطعم (الماكدونالد) الشهير، وفي كل مرة يقف عليها شبح سلسلة الموت (الخبز والماء والضوء والخضار والبقال والجزار وقسيمة الشقة)، ويحرمها من تذوقها. عندما تعود من الرياض في المساء تمر بجانب مطعم (الماكدو)، وترى الأطفال والمراهقين والعشاق والأسر الميسورة، تستمتع بجمالية هذا الطعام القادم من بلاد العم سام. والواقف أكثر من الجالس. ومع توالي الايام بدأ يستيقظ في داخلها حقد طبقي دفين تجاه هذا المطعم، وتجاه من يجلس فيه.

لا تعلم من اين أتى هذا الفرح الذي انتابها اليوم؟ هل هو الوحم أم حب احميدة أم رغبة دفينة في اللاوعي؟

وفّى احميدة بوعده رغم كثرة مشاغله هذه الأيام. كان يهيئ وجبات الغذاء في الليل، وهو يتبادل الحديث مع فاطمة، ويعمل بتوجيه منها عندما يسألها عن نوع التوابل التي تناسب هذا النوع من الخضر او ذاك. ويسأل عن صحتها كلما دخل إلى البيت. ويتلفن من العمل ليطمئن عليها، ويشدد على أن تأكل جيدا.

قالت له وهو في المطبخ بعد ان خفضت من صوت المذياع:

ـ سأزور والدتي، واسأل عن أحوال الجيران في الدرب، وأسلم على والديك.

رد عليها وهو يخرج إلى باب المطبخ، والبصل في يديه:

ـ أعتقد انه من الصواب أن أذهب معك، والدي سيؤنبني إذا تركتك تزورينهم وحدك وأنت حامل، ثم ماذا ستقول حماتي؟

غمزته وبعثت له بقبلة على الهواء، واتفقا على تأجيل هذه الزيارة إلى يوم الأحد.

قبل أسبوعين، زارت والدتها، وقضت معها الجزء الأطول من يوم الأحد. جست نبض الوضع بطريقة غير مباشرة، اعتادت على مساعدتها من حين لآخر حسب ظروفها المادية.

آخر مرة عاتبتها عن التأخر في إخبارها بأنها حامل، وذكرتها بتقاليد النساء قديما كيف تعودن على إخبار أمهاتن قبل أزواجهن بالحمل. قبلت رأسها، واتكأت على صدرها.

داعبت أناملُ أمها خصيلات شعرها. سرقتها غفوة نوم خفيف. أحست بأن الجنة أيضا في أحضان الأمهات.

تذهب أحيانا إلى الرياض. تعمل أسبوعا أو أسبوعين، ثم تذهب بعد ذلك عند ليلى. لم تعد تحتمل الجلوس بمفردها في البيت.

اليوم قررت أن تستريح قليلا. لم تستيقظ باكرا. رتبت الفراش، وطوت الأغطية، وبذلة نوم زوجها. تناولت الفطور بمفردها، وجلست في الصالون. أشعلت المذياع، وسرح بها الخيال بعيدا.

تذكرت عصابة (المشرملين)* بالقرب من باب العمارة، وكيف يختفون لساعات، ثم يعودون لاقتسام الغنائم. غنائم في الغالب من هواتف نقالة، ومحتويات حقائب نسائية. وفي الجانب الآخر الشباب أصحاب اللّحي، بزيهم الأفغاني يؤسسون لخلافتهم الإسلامية بطريقتهم الخاصة. عندما تمر بجانبهم امرأة لا يرفعون بصرهم عن الأرض، أو ينظرون بجَنْب كمن به حول. يتوعدون المارة من الفتيات والنساء بارتداء (اللباس الشرعي)، أو على الأقل لباسا (محتشما) كما يتصورونه، وإلا سينتقمون منهن في المرة القادمة.

كلهم كانوا أجنة في بطون أمهاتهم. ماذا حدث يا رب؟ أين تربوا؟ لماذا لفظتهم المدرسة على هذا الشكل؟ كيف وصل تعليمنا إلى هذا الحضيض، وأصبح مشتلا للتطرف بكل أصنافه من أقصى الانحراف الى أقصى التشدد في الدين ؟ من يخطط لذلك؟ ومن يستفيد منه؟

أسئلة كثيرة أصبحت هذه الايام تنغص عليها فرحتها بالضيف الجديد الذي يتحرك في بطنها، ويكبر بسرعة.

طريق مظلم يتراءى بين عينيها يقود إلى مثنى (التشرميل) والتطرف. رفعت يدها إلى أعلى، وقالت بصوت مسموع ظل حبيس جدران الصالة:

ألا يوجد يا الهي طريق ثالث يضمن لأبنائنا وبناتنا نحن الفقراء الذين لا نملك ثمن مقعد في مدارس البعثات، أو المدارس الخاصة، حدا ادني من التربية والتعليم الجيد؟

المعجم :

ـ المشرملين: لقب أطلقه الناس على الشباب المنحرف.

ـ الحريك: بثلاث نقط فوق الكاف: الهجرة غير الشرعية.

فاطمة تضع مولودا

من حسن حظ فاطمة أن احميدة في البيت. كان بطنها قد انتفخ حتى كاد ينفجر. أحست بوجع حاد، نادت على احميدة قبل ارتداء جلبابها بصوت عال. قدم مذعورا إلى غرفة النوم.

قالت له وملامح وجهها منقبضة:

ـ هي لحظة المخاض لا ريب فيها، نادي على أمي أن تلحق بنا.

تلفن أولا إلى صديقه أحمد الذي وعده سابقا بأن يأخذهما بسيارته إلى المستوصف. بعد ذلك اتصل بوالدتها . اضطر إلى الانتظار لحظات حتى تتمكن من فتح الهاتف وتجيب.

سمع منبه السيارة أسفل العمارة. ساعد فاطمة في جمع الحقيبة الخاصة بحاجيات الولادة. خرجا بسرعة وأغلق الباب. اتكأت عليه، وهي تهبط السلم وتتألم، وهو يتصبب عرقا. فتح احمد باب السيارة الخلفي. سلمت عليه وانحنت قليلا. جلست على جنبها وهي تضع يدها على أسفل بطنها، وتتألم بصوت منخفض. صعد احميدة بجانب السائق، ثم فتح هاتفه واتصل بالممرضة صديقة أسرة زوجته التي ستشرف على توليدها. مروا من طريق محاذية حتى يتجنبوا الازدحام.

عندما وصل إلى مستوصف الحي الذي تسكن به أسرة فاطمة وجد والدتها في الانتظار. كانت قد رتبت كل شيء مع الممرضة قبل أسبوع. شكرت أحمد ودعت معه. ساعدت ابنتها على النزول من السيارة، ودخلت رفقتها. الممرضة تنتظر أمام الباب الداخلي. أخذت بيدها، وساعدتها على التمدد فوق سرير

متحرك، وأخذتها بسرعة إلى غرفة الولادة.

وقف أحمد في قاعة الاستقبال. انتابه خوف رهيب. وجد نفسه في موقف صعب لم يمر بمثله من قبل. الكبار يقولون بأن النساء لا يلدن حتى يبقى بينهن وبين الموت شعرة رقيقة . ظل ينتظر ، والوقت يمر مثل السلحفاة. لتجنب الخيالات المرعبة التي تجري بسرعة في ذهنه أخرج هاتفه، واتصل بليلى صديقة فاطمة. وعدته بأن تأخذ سيارة أجرة، وتأتي لزيارتها في الحال وحاولت طمأنته:

ـ فاطمة امرأة قوية وصبورة ومؤمنة بالله. لا تخف، كل شيء سيمر بخير.

بعد وقت وجيز خرجت أم فاطمة، وهي تزغرد.

ـ مبروك، زوجتك وضعت ولدا مثل القمر يا احميدة.

انفرجت أساريره، وأحس بفرح غامر، شكر الله في صمت. طلبت منه أن ينتظر قليلا حتى تتم الممرضة عملها.

بعد ذلك سمحوا له بالدخول. نظر إلى فاطمة، بدت له المسكينة متعبة، وجهها اصفر خال من الدم، بصم قبلة على جبينها، وتمنى لها أن تتماثل للشفاء بسرعة. قدمت له الممرضة ابنه، قبله وحاول أن يتحدث إليه.

وصلت ليلى. قبلت فاطمة وسلمت على احميدة وباركت لهما المولود. بقي احميدة مع النساء داخل الغرفة إلى ساعة متأخرة من الليل.

استغرب للطريقة التي تم بها استقبال فاطمة في المستوصف الخاص بالولادة في الحي، والسهولة التي تمت بها عملية الوضع، وتخصيص غرفة كبيرة لأربع نساء. رأى أن ذلك ربما يعود لمعرفة فاطمة وأسرتها بالممرضة المكلفة بالتوليد من جهة وإلى نساء الحي اللواتي ارتقى وعيهن نسبيا، وخففن من الولادة كل موسم، أو انخفاض الولادات في هذه الفترة.

استشار ليلى إن كانت ترغب في أن يوصلها إلى بيتها، لكنها شكرت له صنيعه ، وأخبرته بأن زوجها سيمر عليها.

في اليوم الموالي خرجت فاطمة من المستوصف، وذهبت إلى بيتها رفقة زوجها وأمها. صعدت سلم العمارة بصعوبة، واحميدة يأخذ بذراعها.

بعد يومين طلبت من احميدة أن يجلس بجانبها. تداولت معه في مسألتين الكبش والاسم الذي سيتفقان عليه. بدا لاحميدة أن الاسم ليس مشكلا، يمكن أن يتوافقا عليه بسهولة، أما الكبش فيحتاج إلى نقاش. ميزانية البيت ضعيفة، ولا تسمح بالتبذير. قرأت أفكاره بسرعة من دون أن ينبس بكلمة. طلبت منه أن يمدها بحقيبة من الدولاب. فتحتها وأخرجت منها ألف وخمسمائة درهم، وقدمتها له، وطلبت منه أن يذهب في نهاية الأسبوع إلى أحد الأسواق القريبة.

كانت قد وفرت المبلغ من البقشيش الذي تتقاضاه أثناء اشتغالها بالرياض في فترة الأزمات. الأسر الأجنبية التي تقضي عطلتها بمراكش تكون أكثر كرما وسخاء مع النساء العاملات في الرياض.

توافقا على اختار اسم سعيد تيمنا للطفل بمستقبل زاهر، يملؤه الفرح والحبور.

لأول مرة غمرت البيت فرحة كبيرة . تخيل ابنه يكبر بسرعة ويملأ العالم بالضجيج ويريح أمه من شتم الحكومة صباح مساء.

المرأة ذات الجلباب الأزرق

عندما وصل ماهر إلى السوق جهّز العربة بالسلعة، وقادها إلى المكان الذي ألف أن يقف فيه. يعتني دائما بهندامه، ويعتقد بأن ذلك يجلب له السعد، ويجعله يحظى باحترام وثقة الزبائن. اليوم مرّ الوقت بشكل عادي. بعد الانتهاء من صلاة الظهر، تخلص من جزء كبير من السلعة. لما خَفّ ضغط المارة، وقفت على يمين عربته امرأة في العشرينات رفقة صغيرتها، ترتدي جلبابا أزرق يكشف مفاتن جسدها البض. جلباب مفتوح في الأسفل من الجانبين والوسط بشكل يعري أعلى الساقين أثناء المشي. سمرة خفيفة تعلو بشرتها ربما بسبب كثرة تعرضها لأشعة الشمس. كُحل شديد السواد يغطي أهداب عينيها، وقصة شعر فوق الكتفين. حمرة قانية تطبع الشفتين.

سألته بصوت عذب، وهي تضغط على الحروف والكلمات بغنج أنثوي مبالغ فيه، وتعُضُّ على شفتيها بأسنان شديدة البياض:

ـ مساء الخير يا بائع الرمان! بكم الرمان؟

كل الباعة المتجولين بالجوار وقفوا مشدوهين، وتركوا ما بأيديهم، ووجهوا مدفعيات عيونهم إلى جسد المرأة ذات الجلباب الأزرق يفحصونها من أسفل إلى أعلى، وتمنى كل واحد منهم لو توقفت لبرهة أمام عربته.

حدد لها الثمن، وطلب من الله أن يستر. خمّن بأن المرأة ترغب في شيء آخر غير الرمان، وتمنى أن يكون خاطئا!

ردت وهي تركز النظر في عينيه بتدلل وتودد:

ـ (بزاف*) يا غالي على امرأة هجرها زوجها في عز شبابها، وترك لها (هاد البروصي*) في إشارة إلى الطفلة التي بجانبها.

ليتجنب الرصاصة التي أطلقتها عليه بشكل واضح، قدم لها قطعة صغيرة لتتذوقها، وتحكم بنفسها، وعلق على ذلك بقوله:

ـ الرمان فيه الرخيص، وفيه الغالي. فيه الحلو، وفيه المر. والسلعة التي أمامك جاءت من أشهر المناطق في إنتاج الرمان بالبلد.

تناولت جزءا، وقدمت الباقي لابنتها. أدركت بتجربتها، وهي تنظر إلى عينيه بأنه يهرب من شباكها، وأرادت أن تخرج من هذه المعركة بأقل الخسائر الممكنة، فقالت وهي تمضغ حبات الرمان:

ـ والله حلو ولذيذ. لا يبيع الحلو إلا الحلو! ولكن الله غالب ليس معي الآن نقود.

ابتسم، وناولها رمانة كبيرة بالمجان، وطلب منها أن تقدمها للصغيرة. وهي تهم بالانصراف ردت بصوت مهزوم:

ـ فيك الخير يا صاحب الخير.

زادت خطوة ثم التفتت، ورمته بحركة خفيفة من عينيها تشبه السهم، وقالت كمن لا يريد الاستسلام لهزيمته:

ـ مع السلامة يا صاحب أحلى رمان.

صدح صوت أحد جيرانه، وهو يلعن أبو الرمان، وعم البطاطس، وجد الطماطم أمام امرأة تفيض حيوية، وتنضح بالجمال مثل ذات الجلباب الأزرق.

ضحكت بصوت عال، وعيون الباعة تتمايل مع حركات جسدها، وهي تمشي بخطى تسكب فيها بعض الدلال الأنثوي. انعطفت على يمين الزقاق ثم اختفت.

قال في صمت وهو يجلس بجانب عربته ليستريح من كثرة الوقوف التي تكاد تقصِم ظهره:

ـ أحمد الله وأشكره. لو فعلتْ ذلك أمام زوجتي فاطمة لقامت حرب عالمية ثالثة، وتحول معها الرمان إلى حجر!

تعجب كيف تطوف امرأة بكل هذه الفتنة في سوق متواضع بين باعة متجولين غارقين في الفقر والأوساخ من الرأس إلى أخمص القدمين، وعزفت عن أصحاب المال الذين يموتون في البحث عن متعة عابرة مع نساء بهذا القد، وعلى هذا القدر من الجمال في شوارع خمس نجوم. لابد أن شظايا الأزمة مست الناس الذين يعيشون فوق.

المعجم:

ـ (بزاف): كثير

ـ البروصي): الذعيرة.

من يوقف هذا العالم على رجليه ؟

بعد صلاة العشاء جمع أحميدة عربته وصفى حساباته مع عبد الله واتفقا على كمية السلعة التي سيحجزها له غدا. حمل حقيبة صغيرة من البلاستيك جاء بها من البيت، وضعت له فاطمة فيها طعام الغذاء ملأها ببعض الخضر التي اقتناها للبيت في منتصف النهار. أمعاؤه لا تتحمل طعاما لا يعرف من طبخه، وكم بقي من الوقت. يفضل أن يبقى صائما على أن يتناول طعام السوق. أخبرته مرة فاطمة بأن أشهر المطاعم في المدينة القديمة تقدم طعاما للسياح الأجانب تقتنيه أحيانا من ساحة جامع الفنا دون علمهم. يحب الطعام الذي تطبخه زوجته. ويعتقد بأنه على بساطته من أجود الأطعمة في العالم، فهي تنوع وتبدع في صنع الوجبات بأقل كلفة ممكنة. يرى أن زوجته ـ رغم ما يعانيانه من فقرـ امرأة عندما يكون مزاجها رائقا قد لا تشبه بقية النساء. فكر في ذلك وهو يشعر بالجوع، وبدأ يتخيل نوع الطعام الذي سيجده في البيت. سيفتح الباب، وتطبع قبلة على خده الأيسر، وتأخذ الحقيبة من يده، وتطلب من سعيد أن يتركه يذهب إلى الحمام ليغتسل، ويرتاح قبل أن يجلس في حضنه، ويأخذ منه الهاتف ليلعب به. تضع الطعام فوق المائدة، وتجلس بجواره تطلب منه أن يأكل، وتحكي له كيف قضت يومها، وتشكو من شغب سعيد.

وهو في الطريق عاد نفس السؤال الذي يهرب منه، يَطِنُّ في رأسه ويوجعه كل يوم:

ـ إلى متى ستستمر في العمل كبائع متجول، تظل واقفا في الشمس؟ هذا العمل يخضع لمزاج القائد والخليفة والقوات المساعدة، وربما من فوقهم في السلطة.

في بعض الأحيان تتعرض العربة والسلعة لخطر الحجز ويتوقف العمل يوما أو يومين. لحسن الحظ أن الرمان إذا بات لا يفسد. عبد الله أقسم بأنه مجرد وسيط في العشرين درهما التي يأخذها فوق ثمن السلعة، ومستعد للتخلي عن هذه الوساطة إذا طلبت منه ذلك.

الشتاء قادم. كيف سيعمل تحت زخات المطر. العربة تحتاج إلى سقف وصاحبها إلى مظلة. والبرد ماذا يفعل معه؟ الوقوف في الشارع يزيد من الإحساس بالبرد حتى ولو التحف غطاء صوفيا. وإذا تعرض للمرض من سيعوضه؟ وكيف يصرف على البيت؟

تضرع إلى الله أن يحفظه من المرض حتى لا يركب الجنون فاطمة، وتنزل إلى السوق وتأخذ مكانه.

عباس بائع الموز. المسكين صدمته سيارة قبل أسبوع، كسرت رجله لا زال يرقد في بيته. أب لثلاثة أطفال. (ربنا خلقتنا. لا حنين لا كريم). زاره بالأمس رفقة بعض الباعة للاطمئنان على صحته. عندما رآهم ، كاد يطير من الفرح، أحس بأنه ليس وحيدا. جمعوا له خمسمائة درهم بشق الأنفس. حالُهُ يشفي الأعداء.

فكر مرة أخرى في فاطمة وسعيد. غدا سيكبر سعيد، وتأخذه فاطمة إلى المدرسة، وتطلب منك في المساء مصاريف زائدة. ثمن التسجيل والأدوات المدرسية والوزرة، وكتب المقررات، والحقيبة التي ستكسر ظهره. وتشكو لك الحظ العاثر، وكيف تفخر عليها جارتها عائشة زوجة حارس الدراجات التي ستقسم على زوجها بألا يدرس ابنها إلا في مدرسة خاصة، وستؤدي بالمقابل أجرا يفوق خمسمائة درهم شهريا.

تساءل بمرارة:

ـ هل يفكر الناس (اللي) فوق في هذه المعاناة، ويبحثون لنا عن حل؟ نحن أيضا لنا حق في هذا الوطن، لكننا معتقلون ومنسيون في هذه الأزقة بالقرب من بيوت الله التي يؤدي فيها المسلمون الصلاة خمس مرات في اليوم! لا رأفة ولا رحمة، لا عمل مستقر، لا مدونة شغل، لا ضمان صحي أو اجتماعي. نحن في غابة حكم علينا الناس الذين يعيشون فوق بأن نتحول إلى حمير بأعين مغمضة، تدور حول الطواحين بشكل آلي، والقوات المساعدة والخليفة والقائد يراقبونا عن بعد، ويمنعونا من إزالة العصابات عن العيون.

تذكر دروس استقلال الصين والثورة البولشفية وحركات التحرر الوطني، وأستاذ الفلسفة، وأحلام الشباب عندما كان طالبا في الثانوي. تساءل بحسرة يملؤها اليأس قبل أن يصعد السلالم:

ـ لا أنبياء جدد يلوحون في الأفق، ولا رفاق حمر، أو صفر ينزلون إلى السوق، فمن سيوقف يا ربي هذا العالم على رجليه؟

الله يغرق لهم (الشّقف)*

خرجت فاطمة لشراء بعض الخضر. الشمس في الخارج متوهجة، وكأنها في عز الصيف. أخرجت القبعة من القفة، ووضعتها فوق رأسها. تذكرت أن اليوم عيد ميلادها. أربعون سنة مرت بسرعة. نفس الشمس الحارة في الخريف التي حكي عنها والدها. قال لها مرة بأنها ولدت في سنة جافة. نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الماضي، شهدت أسوء فترة جفاف بعد الاستقلال. انتشرت فيها الأمراض والوفيات. باع الناس كل ما يملكون من أجل كسرة خبز. كان القرويون يأتون إلى بعض المدن، ويشترون شيئا قليلا من الخبز والسكر والشاي، ويتركون بغالهم أو حميرهم التي يركبونها بجانب الخباز أو البقال كضمانة حتى يعودون إليه بما تبقى من النقود، وبعد ذلك يختفون. لحوم الأغنام والبقر تعرض في الأزقة بأرخص الأثمان. أسر بكاملها هاجرت العديد من القرى والمداشر بحثا عن كسرة خبز. أما الخضر فتلك حكاية أخرى ذكرتها بفيلم (الزفت) للطيب الصديقي*، وهي طفلة تجلس بجانب والدها ، تتفرج على التلفزيون. ممثلون يحملون قففا صغيرة جدا داخل ساحة يعرض فيها الباعة سلعا قليلة بأثمان خيالية. حبات قليلة من العدس، وبذور عباد الشمس، أو الفلفل والبطاطس بمئات الدراهم.

لعنت الشيطان، وحاولت طرد هذه الخيالات السوداء من رأسها، وطلبت من الله أن يستر حال الفقراء، فليس لهم في هذا العالم غيره. استغنت عن بعض الخضر والفواكه التي ارتفعت أسعارها منذ نهاية فصل الصيف، لكن لا بأس أن تسأل عن ثمنها من باب حب الاستطلاع. عادت كوابيس الجفاف إلى خيالها من جديد وقالت مع نفسها:

ـ بالأمس كنت فقط أنا واحميدة نتحايل على المعيشة، ونقضي اليوم بما كتب الله، لكن الآن أضيف إلينا سعيد، والحاجيات تزداد، ودخلنا ينقص ولا يزيد.

يا إلهي لماذا ترتفع الأسعار كل يوم، وال(جيب) و(الرونج روفر) في الضفة الأخرى أصبحتا أكثر من الحمير!؟

سقطت دمعة من عينيها دون سبب واضح، ثم رفعت بصرها إلى أعلى، وهمست في أذن السماء:

ـ يا رب استرها مع الفقراء والفلاحين، وأغرق (شقف) هؤلاء الطغاة وحكوماتهم التي تضر ولا تنفع إلا الناس الذين يجثمون على صدورنا. لا نملك (جيب) أو (رونج روفر)، ولا بغلا ولا حمارا حتى نتركه بجانب الخباز أو البقال.

الهامش :

ـ الله يغرق لهم الشقف: الشقف أداة تصنع من الطين لها فتحتان إحداهما يدخل فيها عود مجعوب، والثانية مفتوحة إلى أعلى، يحشوها المدخن بحبيبات من القنب الهندي، والشقف والعود يدعى (السبسي)، وفيه يُدخن القنب الهندي. والعبارة دعاء على من تكرهه. فالمدمن على تدخين القنب الهندي إذا اتلف الشقف، تتوتر أعصابه ، ويطير صوابه ، ويلعن اليوم الذي ولد فيه، وقد يرتكب حماقة إذا لم يعثر عليه.

ـ الطيب الصديقي: (1938 ـ 2016) كاتب وممثل ومخرج مسرحي وسينمائي، مغربي ازداد بمدينة الصويرة، من أشهر مسرحياته: الحراز ومقامات بديع الزمان الهمداني وأبو حيان التوحيدي.

نداء إلى ابن خلدون

بعد عودة احميدة من السوق، نزع حذاءه وقبل أن يجلس في الصالون مع ابنه سعيد غسل يديه بالصابون. وخاطبه بنبرة حزينة:

ـ مشينا فيها أوليدي. خرجنا على البلاد. لا صحة لا تعليم.

أجابته فاطمة من المطبخ:

ـ الطفل ما يزال صغيرا عن فهم هذا الكلام الكبير.

ابتسم سعيد، وبدأ يبحث عن هاتف والده.

سألته فاطمة:

ـ هل أديت الصلاة في المسجد؟

أجابها وهو يحك لحيته:

ـ إذا أردت الحقيقة لا. صليت في الحديقة بمفردي. خفت أن أنقل لكم العدوى لا قدر الله.

ردت عليه بهدوء:

ـ إن رحمة الله واسعة، وهو يتقبل دعوات وصلوات عباده الفردية في الفترات الاستثنائية. والله لا يريد لنا إلا الخير. وما فعلت فيه خير.

ثم سألته مرة أخرى:

ـ ماذا يقول الناس عن كورونا في الخارج؟

رد عليها وهو يمسح الهاتف بقطعة من ورق كلينيكس قبل أن يمده لسعيد:

ـ الأقوال متضاربة. المسئولون لا يقولون كل شيء، وثقة الناس متذبذبة.

قالوا بأننا لا زلنا في مرحلة البداية. وكل الحالات التي عثروا عليها قادمة من الخارج. وأكدوا بأن العملية لحد الساعة متحكم فيها.

مسحت يديها بالمنشفة، وجلست على كرسي بجانب الباب، وقالت بصوت حاد:

ـ وما دام الأمر كذلك لماذا تركوا النار تشتعل في الأسعار؟ أما الخضر فعملوا لها أجنحة وطارت إلى السماء! كان الله في عون الضعفاء ومحدودي الدخل مثلنا!

حاول احميدة أن يوضح لها أكثر:

ـ اسمعي يا فاطمة الناس الذين يملكون فائضا من المال، ويعتقدون بأنهم يفهمون أكثر من غيرهم مثلهم مثل كورونا، يراهنون على أن نصف الشهر القادم سيكون صعبا. ولهذا تهافتوا قبل غيرهم على شراء مواد التنظيف والغذاء والخضر قبل أن يصبح الحصول عليها من سابع المستحيلات.

ـ والفقراء وذوو الدخل المحدود مثلنا الذين لا ينهون الشهر إلا بالخناق و (الكريدي) ماذا يفعلون؟ هل يحملون العصي والسيوف، وينزلون إلى الأسواق الكبرى ليأخذوا حقهم بأذرعهم؟

ـ لا يا فاطمة. في ايطاليا حدثت أشياء عجيبة. كورونا ضرب بكل قوته وأجبر الناس على المكوث في بيوتهم للتقليص من حدة انتشار الفيروس. الشرطة تراقب الوضع. الأطباء يشتغلون ليل نهار. الحكومة تكفلت بمصاريف الماء

والكهرباء، وتزويد المنازل بالطعام. الأثرياء والأغنياء يتبرعون، والناس تساعد بعضها البعض. رأيتهم في فيديو يقفون على الشرفات مع أبنائهم وجيرانهم، يضربون على الطناجر، يغنون للحياة، ويرددون نشيدهم الوطني بشكل جماع . والله أحسست كأني واحد منهم، لولا أن أيقظني هؤلاء المجرمون تجار الأزمات من سهوي. لو كنت أملك سلطة لجمعتهم في مخيم وأطلقت عليهم كلاب كورونا.

قالت فاطمة وهي تتحسر:

ـ وهل تعتقد أن المقدمين والشيوخ والقوات المساعدة ستتعامل مع السكان مثل السلطات في إيطاليا؟

تلك ايطاليا يا احميدة ! ايطاليا الحضارة والتاريخ بالأمس. ايطاليا التقدم والازدهار والديمقراطية اليوم. ابتعدوا عنا بقرون طويلة. الفيروسات التي تسكن عقليتنا أخطر بعشرات المرات من كورونا. إذا كان كورونا عقابا من الله، فنحن وفقهاؤنا وحكامنا أولى به من غيرنا. أنظر إلى نجوم التفاهة اليوم الذين حطموا كل الأرقام القياسية في اللايفات.

الله يرحمك يا ابن البناء وابن رشد وابن عربي وابن طفيل وابن خلدون ومحمد عزيز الحبابي وعابد الجابري.

رفعت فاطمة يدها وتضرعت إلى السماء بصوت رخيم:

ـ يا ابن خلدون تعالى أنظر كيف لفظنا التاريخ، واقرأ طالعنا من جديد؟

عندما يرحل كورونا

طلبت فاطمة من احميدة أن يلعب مع ابنه، ويُبدّد شيئا من وقته الفارغ حتى تنتهي من (نَصْب) الطاجين. رقّدت قطعتين متوسطتين من لحم الدجاج في زيت الزيتون والتوابل، ونثرت فوقهما الملح. أشعلت فرن الغاز، وبعد دقائق قليلة أضافت فوقهما البصل وسقته بالمرق. قشرت الجزر والبطاطس والطماطم وقطعتها. وضعت بجانب الخضر بعض حبات الزيتون المشقوق. ونقصت نار الفرن إلى أدنى حد. ثم غسلت يديها، وأخرجت الخبز من (الفريزر)، وعادت إلى الصالون.

ابتسمت لسعيد، فقدم يحبو نحوها بسرعة. حملته بين يديها، ورفعته ثلاث مرات إلى أعلى وهو يضحك بصوت عال. رغبت في طبع قبلة على شفتيه، لكنها خافت من كورونا، فجلست قبالة حميدة وقالت له:

ـ تعرف ماذا سأفعل بعد رفع الحجر الصحي، يوم نهزم كورونا، ويرحل عنا؟

رد عليها بتعجب:

ـ أخمن أنك ستزغردين كباقي النساء، أو تنظمين حفلا صغيرا لأفراد العائلة! أو تذبحين جديا، وترقصين (مع جناوة)!

قالت وهي تضحك:

ـ نعم سأزغرد، وسأدعو أفراد العائلة لحفل صغير، وسأرقص على نغمات (كناوة)، ولكن عيني في شيء آخر.

فقط أتمنى على الحكومة أن تعفينا من فواتير الماء والكهرباء لشهور كورونا الذين قضيناهم بلا عمل ولا أجر. والله أشعر بالتهميش والدونية، لأننا لا نملك فائضا من المال، نُرفّه به عن أنفسنا في نهاية الشهر مثل أغلب خلق الله.

بعد ربع ساعة نهضت إلى المطبخ قبل أن تكمل حديثها. رفعت الغطاء عن الطاجين وأضافت الخضر، ووضعت فوقها (القزبروالمعدنوس)، ورمت قليلا من الملح، وسقته بالمرق. مسحت يديها بالمنشفة. كانت رائحة الطاجين قد سبقتها إلى الصالون.

قال لها احميدة:

ـ تعرفين يا فاطمة! يدك تَسْحرُ الطبخ. رائحة الطاجين ستصل إلى أسفل العمارة، وستغار منك بعص الجارات. وأطلق "القلب المسكون" رائعة جيل جيلالة وأغنيتهما المفضلة.

ابتسمت لمديح احميدة، وحسن تقديره لمجهودها في الطبخ، وبدأت تردد مع الفرقة بصوتها الدافئ:

يا قلبي طاوعني ياك أنا مولاك

علاش الغير يسكنك

لله آقلبي جاوبني آش ندير معاك

لم يترك احميدة لخيالها أن يسرح مع نغمات جيلالة بعيدا، حتى طلب منها أن تكمل ما قالت بأنها تفكر القيام به بعد هزم كورونا ورحيله.

فقالت وهي موزعة بين عالم النغم، وعالم ما تحلم القيام به غدا:

ـ سنقضي يوما بكامله في منتجع اوريكا. لن يكلفنا الشيء الكثير. منزل عمك قريب من الوادي. وسنقضي نصف يوم في حديقة (ماجوريل)، ونصف يوم آخر بصهريج المنارة، واليوم الأخير سنخصصه لزيارة قصر الباهية ودار سي سعيد. ميزانية زيارة هذه التحف قد تمتص فاتورة ثلاثة أشهر من الماء والكهرباء أو أكثر. الناس تأتي من آخر الدنيا لمعاينة هذه المآثر، ونحن أصحابها، أقرب الناس مسافة منها، محرومين من الاستمتاع بجمالها!

لم يسبق للطاجين أن جاد على مطبخها بمثل هذه الرائحة الطيبة التي تجذب الجياع من بعيد، وتفتح الشهية لتناول الطعام، وكأنه يشاركها أمنيتها في الانتصار على كورونا.

ختمت حديثها بتحدٍّ وعناد ورثتهما عن طفولتها، ولم يستطع لا كورونا ولا دوائر الزمان أن تكسرهما:

ـ كل من عاش بعد هزيمة كورونا، فكأنما ولد من جديد. لا بد أن نحتفل بطريقتنا الخاصة. والله إذا لم يستجب رئيس الحكومة لنداء الفقراء بإعفائهم من فواتير الماء والكهرباء لأعملن على توفير ميزانية لتحقيق هذا الحلم ولو مرة واحدة، حتى ولو اقتضى مني ذلك العمل والإضراب عن طعام الغذاء والعشاء شهرا كاملا هذا الصيف.

Si Hamid El Youssoufi

سي حاميد اليوسفي من مواليد 1954 بالمغرب. يقطن بمدينة مراكش. عمل كمدرس لمادة اللغة العربية بقطاع التربية والتكوين. تفرغ للكتابة بعد تقاعده عن العمل. نشر العديد من القصص القصيرة في صفحته الشخصية على الفايس بوك وفي العديد من المواقع الثقافية والأدبية، من بينها موقع أنطولوجيا السرد العربي، وموقع بصرياثا، وموقع أنتليجينسيا وموقع الكتابة الثقافي وعلى صفحة مكتبة أغردات العامة وغيرها.

يقول:

أنا لا أكتب لقارئ محدد. أكتب أحيانا للبسطاء مثلي عن واقع قد يكونوا هم أنفسهم أبطاله. أكتب لبائع السجائر بالتقسيط، والبائع المتجول، وعمال المقاهي، وللنساء اللواتي رمتهن ظروف صعبة في جحيم الحياة، وكل المقهورين. لا أعرف إن كانت نصوصي تصل إليهم أم لا. أكتب أيضا لأصدقائي. أكتب للمستقبل، ولإرضاء رغبة دفينة في النفس. أكتب لكي لا أنسى، بالفتحة والضمة.